كتابي

حلمي مراد



١٠ قروش

من معروضات "صالون القاهرة"
"على شاطئ البحر" لوحة للفنان "جورج سباستي"

كتابى

كتاب شهرى لتلخيص الكتب العالمية
يصدر أول كل شهر
صاحبه ورئيس تحريره : حلمى مراد

شعار الكتاب

مصباح الفكر عند الإغريق

الكتاب الخامس والسبعون (السنة السابعة) : يونية ١٩٥٨
الاشتراكات ومجموعة الاعداد السابقة : اقرأ التفصيلات بالداخل
الادارة : عمارة الجندول - ١٤ شارع ٢٦ يوليو - بالقاهرة
تليفون : ٥٩٥٥٦

محتويات الكتاب

نافذة كتابى تطل على العالم

رأيت وسمعت لك .. فى آسيا

للمحرر



المتوحشة الحسناء !

عزيزى القارىء ..

• فى الفصول السابقة رويت لك قصة « حضارة » الصين خلال أربعة آلاف وثلاثمائة سنة ، منـذ عام ٢٣٥٦ « قبل » الميلاد ، الى ما بعد الحرب العالمية الاولى ، فى الربع الاول من القرن الحالى !

حدثتك عن الصين كما عرفها الصينيون .. الصين العريقة على حقيقتها .. الصين مهد المدنيات القديمة التى نقلها عنهـا الغربيون ، أو سرقوها ، بعد عشرات القرون !

الصين التى سبقت أوربا ، فى مستـواها الثقافى والفنى ، بنحو ثلاثة آلاف سنة !

وبهذه المناسبة ، قد يلذ لك أن تقرأ شيئـا عن الصين كما يتصورها ــ أو يصورها ــ الغربيون .. سواء عن جهل ، أو تجاهل .. عن مجون ، أو تحامل .. عن خيال جامح ــ بغية التسلية ــ أو دس خبيث ، بغية التشهير ! .. (تماما كما فعل الغرب بتاريخ العرب ، حين أساء استغلال قصص ألف ليلة وليلة !)

فتعال معى نشهدالصين القديمة كما يراهاالغربيون ، فى كل عواصم العالم ، على مسارحهم .. التى تقدم لهم منـذ اثنين وثلاثين عاما هذه التمثيلية الغنائية المشهورة ، التى تصور لهم (الصين) ، كما تصور شقيقتها « مدام بترفلاى » ، جارتها (اليابان) .. تصورها بخيال مخرجى هوليوود حين يخرجون أفلاما ملونة عن « لص بغداد » ، أو « ليالى هارون الرشيد » !

شىء واحد يشفع لهذه الاوبرا المشهورة ، ويجعلها عملا فنيا جديرا بالاشادة به ــ بغض النظر عن مدى أمانتـه للحقـائق

التاريخية ـ وهذا الشيء هو روعة الالحان التى وضعها لها الموسيقى العالمى « بوتشينى » ! (وهو نفسه واضع ألحان شقيقتها « مدام بترفلاى »)

فتعال معى نقارن بين الصين كما صنع حضارتها أهلها .. وبينها كما يلفها خيال الغرب فى غلالات من غموض الشرق ، وعطره ، وسحره .. وفى سحابات من دخان .. الافيون !

- ١ -

• **نحن** فى الصين القديمة ، التى تحدثنا عنها الاساطير .. حيث تعيش أميرة من أسرتها المالكة تدعى « توراندوت » ، اشتهرت بشيئين : جمالها الصاعق الذى يفتن كل من يراها .. وقلبها القاسى كالحجر ، البارد كالثلج ! .. القلب الذى لا يلين لعاطفة ، ولا ينبض بحب ، أو شوق ، أو حنين الى انسان ! .. ومن ثم لا يكاد رجل من أمراء المملكة أو نبلائها العظام ـ أو من أمراء ونبلاء الممالك البعيدة التى استفاضت فيها شهرتها بالجمال ـ يعرب عن رغبته فى الزواج منها ، حتى يصدمه جوابها الصارم الذى لا يتغير : كلا !

.. وقد بلغ من تدليل أبيها الامبراطور لها أنه تركها تقرر مصيرها على هواها .. بل وأذن لها أن تفعل بخاطبى ودها ، وطالبى يدها ، ما يحلو لها !

واليك ما فعلته :

كانت تشترط على كل خاطب يتقدم اليها ، أن يجوز امتحانا رهيبا يتألف من ألغاز ثلاثة : ان استطاع حلها ، وأدلى بالجواب الصحيح عنها ، قبلته على الفور زوجا لها ـ وظفر معها بعرش الصين ! ـ وان عجز عن الاهتداء الى حلولها الصحيحة ، كان جزاؤه فصل رأسه عن جسده فى مشهد شعبى حافل يجرى

فى الساحة المواجهة للقصر الامبراطورى !

ولما كانت الالغاز التى تحرص الاميرة على انتقائها لعشاقها عسيرة الحل ، شديدة التعقيد ، فان أحدا منهم لم يوفق الى حلها .. وهكذا دفع كثيرون من الامراء الشبان حياتهم ثمنا لطموحهم الى الحظوة بأميرة الصين المدللة .. وقد كان والدها الامبراطور يتوق الى انقاذ أولئك الضحايا المساكين ووقف تلك المذابح البشعة ، لكنه لم يستطع أن يحنث فى الوعد الذى بذله لابنته ذات القلب المتحجر ، التى أبت أن تحله منه !

وهكذا استمرت المذابح تتوالى .. والضحايا يتزايدون !

.. حتى اذا كان اليوم الذى تبدأ فيه حوادث هذه القصة ، وقع فى براثن فتنة الاميرة المتوحشة أمير شاب من أمراء الشرق هو ولى عهد مملكة الفرس .. فلما مثل فى حضرة فاتنته ، ألقت عليه ألغازها الثلاثة التقليدية .. وازدحم الميدان الواقع فى مواجهة القصر الملكى بجماهير الشعب التى تتوق الى معرفة النتيجة !

* * *

• **فاذا** رفعت الستار عن الفصل الاول ـ بعد هذا التمهيد لجو المسرحية ـ فنحن فى ميدان فسيح يقع داخل أسوار مدينة (بكين) ـ أو « مدينة البنفسج » كما يطلق عليها الصينيون ـ وقد هبط المساء،وفى جانب من الميدان يقوم القصر الامبراطورى ، بأبراجه وأروقته المزينة بتماثيل ضخمة ترمز لحيوان « التنين » ، والثور الوحشى ، وغيرهما من فصائل الوحوش الخرافية الغريبة التى يؤمن بها الشعب الصينى.وفى أسفل الدهليز الرئيسى للقصر ناقوس ضخم من البرونز معلق بين قوسين من أقواس النصر . وهو ناقوس يدق ثلاث مرات كلما أريد اعلان وصول طامع جديد فى يد الاميرة«توراندوت»، يرغب فى تجربة حظه !

ونحن نرى جمهورا صاخبا قد تجمع فى الميدان حـول أعلى برج من أبراج القصر ، يترقب فى لهفة اعلان نتيجة آخر اختبار عقد فى القصر الامبراطورى فى تلك الليلة ، لشاب آخر تقـدم يطلب يد الاميرة الحسناء .. والجمهور يتطلع الى مناد منتفخ الاوداج قد وقف فى شرفة بقمة البرج يتلو مرة أخرى قائمة شروط الاميرة « توراندوت » بشأن الطامعين فى الزواج منها .. **ثم يعلن نبأ فشل الشاب التعس فى حل الالغاز الثلاثة ، وقرب تنفيذ حكم الاعدام فيه عند شروق القمر فى الليلة ذاتها !**

.. فاذا فرغ الرجل من تلاوة الحكم ، ارتفعت من الجماهير الصاخبة صيحات التهليل الوحشية الطروبة التى تنم عن اعتزاز الشعب بأميرته المتوحشة الحسناء .. أو خوفه من اغضابها فيما لو فترت حماسته لاوامرها ونواهيها !

وفيما يتبادل المتظاهرون مع الجلاد عبارات المزاح القاسى ، ويتطلعون فى لهفة الى شروق القمر ، الذى يؤذن بتنفيذ الحكم فى الامير التعس .. يرى بين جموع الجماهير المتزاحمة شيخ طاعن فى السن يستند الى ذراع فتاة من طبقة الاماء — الجوارى — تدعى « ليو » .. وكلاهما يرتدى أسمال المتسولين البالية، ويبدو عليه التعب والاعياء !

ويعجز الشيخ عن الصمود لمناكب المتزاحمين ، فيسقط على الارض بتأثير صدمة غير مقصودة من أحدهم . وتجزع الفتاة لسقوطه ، خشية أن تطأه الاقدام ، فتصيح بأعلى صوتهـا ، طالبة النجدة !

ويستجيب لاستغاثتها شاب وسيم — هو فى حقيقة الامر أمير متنكر من أمراء (التتار) يدعى « خلف » — فيهرع من فوره الى مكانها ، ويفلح فى حمل الشيخ المسن الى مكان آمن ..

وكم تكون دهشة الامير «خلف» حين يتعرف فى المسن الذى أنقذه ، على أبيه « تيمور » ملك التتار المخلوع ، الذى انتزع

منه أحد الغاصبين عرشه ، والجأه الى الفـرار من بلاده الى الصين ، فى رعاية خادمته العذراء الوفية ((ليو)) .. فلبث الاثنان يتنقلان من مكان الى مكان، فى ثيابهما المهلهلة وشخصيتهما المجهولة ، حتى وصلا الآن الى (بكين) .. لـكن فرحة الاب باجتماع شمله من جديد ، على غير انتظار ، بابنه الذى حسبه قد قتل ، تشوبها غصة باقية وسحـابة من الـكدر .. فان جواسيس غاصب العـرش ـ المنتشرين فى كل مـكان ـ لن يترددوا فى قتـل الامير وأبيـه ، لو عثروا عليهما أعزلين من السلاح ! .. ومن ثم يقرر الثلاثة أن يحـرصوا على اخفـاء شخصياتهم عن الجماهير ، ويمعنوا فى التنكر !

* * *

• **ولا يلبث** القمر أن يبزغ من وراء الافق .. ويقبل موكب الاعدام الرهيب ، فى سيره البطىء الوئيد ، يتقدمه الجلاد حاملا سيفه الضخم ، ومن ورائه الجنود ورجال الحرس فى ثيابهم الفاخرة .. وفى المؤخرة ، الامير الفارسى التعس ، المحـكوم باعدامه !

واذ يواصل الموكب سيره البطىء صاعدا سفح التل المؤدى الى ساحة الاعدام ، **تدرك الجماهير شفقة مبـاغتة على الامير الفارسى الوسيم ، الرقيق الحاشية ، وهو يسير كالحالم ، وعلى شفتيه ابتسامة لطيفة .. فى انتظار أن يجود بحياته طوعا لامر الاميرة العذراء التى أحبها !**

ويلوح فى مقدمة المشفقين على الضحية التعسة، الساخطين على الاميرة الظالمة ((توراندوت)) ، الامير ((خلف)) ، التترى الغريب عن الديار ! وفى حماسة سخطه واشفاقه ، يستهين بالخطر الذى يعرض نفسه له ، فيبدأ فى الصياح طالبا العفو عن المحكوم عليه ! .. بل ولا يتحرج عن صب اللعنـات على

الاميرة الطاغية ، التى ترسل الى المقصلة عشاقها النبلاء الابرياء !

.. ولا تلبث صيحاته أن تحدث أثرها فى الجماهير ، فتجاريه فى الصياح ، طالبة ارجاء تنفيذ الحكم !

ولكن فى تلك اللحظة ، تظهر الاميرة ((توراندوت)) فى شرفة القصر المطلة عليهم ، فتشل صيحاتهم فى حلوقهم - من فرط الرهبة - وتنحنى رؤوسهم الى الارض ، تحية للاميرة واجلالا !

أما هى ، فترفع ذراعها ، مفصحة عن تصميمها على اعدام أمير (فارس) الذى فشل فى حل ألغازها الثلاثة ! .. وعندئذ يتابع موكب الموت سيره من جديد ..

* * *

• **لكن** جمال « المتوحشة الحسناء » يتطلب مزيدا من الضحايا على الدوام . وهو قد اختار له فى تلك اللحظة ضحية جديدة ! .. فان عينى أمير التتار - « خلف » - لا تكادان تصافحان وجه « توراندوت » ، وقد غمرته أشعة القمر ، حتى تجمد صيحات الاستنكار على لسانه .. وتتراءى له الاميرة - فى وقفتها المزهوة ، وثيابها الفاخرة ، وحليها المتلالئة - رؤيا خلابة من رؤى الفتنة العارمة ! .. كانت كل لفتة من رأسها ، أو حركة من ذراعيها، ترسل وميضا من النار يخطف الابصار : وميض الجواهر البراقة التى تتزين بها ، من ماس ، وزمرد ، وياقوت أحمر وأزرق ، وكهرمان ، وفيروز ، ولؤلؤ ! .. الخ

وتنسحب الاميرة من الشرفة بعد لحظات .. فتنصرف الجماهير وراء موكب الموت الذى تابع سيره نحو ساحة الاعدام .. ويخلو الميدان الا من الثلاثة الغرباء المجهولين : ملك التتار، وابنه ، وخادمته الوفية !

ويقف الامير ((خلف)) مبهورا بسحر جمال ((توراندوت)) الصاعق ، وقد استحال سخطه عليها فجأة الى شغف جارف ،

فيلمع فى عينيه نور الغبطة .. وتتزاحم على شفتيه عبارات الاعجاب البالغ !

ويحاول أبوه الملك المسن ، وخادمته « ليو » ـ التى تحب الشاب فى سريرتها ! ـ أن يصرفاه معهما من المكان ، بعيدا عن الخطر الكامن وراء كل لحظة يقضيها متسكعا فى تلك البقعة !.. لكن الامير يرفض الانصراف معهما ، مجاهرا بأنه قد شغف حبا بالاميرة ، وسوف يطلب يدها للزواج ! .. انه يعتزم أن يدق الناقوس الكبير ثلاث مرات ، معلنا استعداده للدخول فى الامتحان المشروط ، ومحاولة حل الالغاز الثلاثة !

.. وعبثا يناشده أبوه اليائس ، وخادمته المرتاعة « ليو »، أن يرجع عن عزمه ! .. وحتى حين تسمع من ساحة الاعدام أنات الالم وتأوهات الاشفاق، مختلطة بصيحات الظفر والتهليل التى تعلن أن أمير فارس لم يعد على قيد الحياة ! .. فان الامير « خلف » يظل عند عزمه وتصميمه على المغامرة بحياته ، هو الآخر ، أملا فى الظفر بعروسه المنشودة ، أو دفع حياته مهرا لها !

ولا يكاد ضباط الحرس الامبراطورى ورجال القصر يعودون بموكبهم الى الميدان ، حتى يهرع الامير « خلف » نحوهم ، طالبا السماح له بالمثول فى حضرة الاميرة على الفور ، باعتباره خاطبها الجديد !

ويدهش رجال القصر أنفسهم من اقدام الشاب على القاء نفسه فى براثن الموت المحتوم ، على هذا النحو ، **فتراهم ينصحونه بالعدول عن مخاطرته والنجاة بنفسه ، قبل فوات الاوان ! .. فهم يبصرونه ـ مخلصين ـ بأنه لن يستطيع بحال أن يحل الالغاز المستعصية التى تمتحن بها الاميرة عشاقها !**
.. وينضم اليهم فى اسداء النصيحة اليه ثلاثة من وزراء الامبراطور أنفسهم ، يدعون : «بنج»، و «بونج»، و «بانج» ..

ثم يتجمع حشد جديد من الجماهير على صوت المناقشة ، فيظهرون سخريتهم وزرايتهم بالعاشق الجديد ، ويسفهون حماقته !

* * *

• **لكن** ذلك كله لا يزعزع يقين الامير «خلف» وتصميمه ! .. فيندفع فى جنون نحو الناقوس الكبير ، ويتناول المطرقة فيدقه بها ثلاث دقات مدوية، وهو يصيح بأعلى صوته ، مع كل دقة : « توراندوت ! .. توراندوت ! .. توراندوت ! »

وقبل أن يسدل الستار على الفصل الأول ، نرى باب القصر يفتح للعاشق المغامر ، فيلجه فى ثقة وجرأة ، كى يؤدى أمام الاميرة امتحانه العسير !

- ٢ -

• **فاذا** كان الفصل الثانى ، فنحن فى اليوم التالى ، وقد جلس الوزراء الثلاثة – « بنج » ، « بونج » ، « بانج » – يتداولون فى شئون المملكة ، ويندبون حالها ، مشفقين من اقتراب اليوم الذى ينهار فيه النظام الامبراطورى ، فان الرؤوس تسقط كالفاكهة التى أصابها العطب .. وما من أحد يستطيع أن يعيد السلام الى الوطن الممزق !

وتسمع طبول تدق من بعيد . أن ساعة امتحان العاشق الجديد قد دنت ! .. فينسحب الوزراء الثلاثة لاتخاذ اجراءات التحضير لمرقص كبير فى أحد أجنحة القصر .. ونراهم يبذلون جهدا عظيما كى يتم كل شىء على أبهى صورة ، **فقد يكون الحفل الذى يعدون عدته مأدبة زفاف – وان كان شعورهم الشخصى يرجح لديهم أنه سيكون مأتما ، كمآتم خاطبى الاميرة السابقين ! – وما فرصة هذا الاحمق الجديد فى حل ألغاز الاميرة الثلاثة الا فرصة ضئيلة .. فكيف لم يتعظ مما جرى لامير (فارس) الذى لقى حتفه فى الليلة السابقة ؟**

لكن الوزراء الثلاثة يمضون فى عملهم مرحين .. ان واجبهم يحتم عليهم أن يتخذوا الحيطة ، فيعدوا كل شىء للزفاف ، لا للموت ! .. وهم يتبادلون النكات التى تنم عن طبيعتهم المرحة ، وكل منهم يتوق الى اليوم الذى يعود فيه الى بيته الريفى الآمن فى سلام . لقد جنت البلاد بهذا الذبح المتوالى للعشاق البلهاء !

ويقترب صوت الطبول ، ودوى الزحف الجبار .. فيخرج الوزراء « بنج ، بونج ، بانج » ليستمتعوا بالمذبحة الجديدة ، على حد تعبيرهم

* * *

• **فاذا** كان المنظر التالى ، رأينا الامير « خلف » ــ أو الامير المجهول ، الذى أبى الادلاء باسمه لأى شخص ، خوفا على أبيه من التعرض لخطر الاعداء ــ قد نقل الى قاعة العرش الفسيحة التى ازدحمت جوانبها وجدرانها بتماثيل الوحوش الصينية الضخمة والسلاحف ، وتدلت من سقفها المصابيح الملونة بألوان قوس قزح ، وعلقت فى أركانها لوحات من الحرير « المشجر » الثمين ..

.. على أن هذه الابهة والمناظر الفخمة لم تبهره ، وهو الذى نشأ محاطا بأبهة مماثلة فى قصر أبيه ملك التتار .. فلما رفع بصره ، فرأى فى قمة السلم الرخامى العريض جلالة الامبراطور « ألتوم » امبراطور الصين العظمى ، جالسا على عرش من العاج الفاخر ، محاطا بحاشية من الوزراء والنبلاء والجنود حملة الاعلام الغريبة المختلفة .. لم يزد عن ان أحنى رأسه للجالس على العرش ، ببساطة ووقار ، شأن من يشعر انه ينحدر هو الآخر من دم ملكى !

ويغتم الامبراطور اذ يرى أمامه شابا وسيما آخر يوشك أن يذهب ضحية ابنته ذات القلب البارد المتحجر ! ..

فيناشده بدوره فى حرارة أن يعدل عن مجازفته المميتة ، ويرحل قبل فوات الاوان ! .. لكن محاولاته تذهب سدى ، فان الامير الشاب قد تورط فى حبه بحيث لايجدى فى تحويله عن هدفه شيء !

وهنا ينفخ الحراس فى نفيرهم ايذانا بوصول الاميرة « توراندوت » ، التى تدخل محاطة بتابعيها ، وتقف بجوار العرش .. ثم تأخذ فى سرد الاسباب التى تجعلها تحجم عن الزواج ، وتعامل خاطبيها بهذه القسوة الصارمة . وتتلخص قصتها فى أن أميرة من جداتها قد انتزعت من عرشها منذ أجيال بعيدة ، وذبحت بيد ملك قاس كان قد غزا البلاد .. ولاجل الانتقام لها تعمد « توراندوت » الى معاملة خاطبيها من أمراء البلاد الاخرى بنفس الوحشية ! .. وان كانت قدخففت من حدة عقوبتها فى الواقع وأوجدت لهؤلاء مخرجا منها بابتكار فكرة الالغاز الثلاثة التى ينجو من يستطيع حلها ، بل ويظفر بها زوجة له أيضا !

وتخلص الاميرة من قصتها أخيرا لتنصح خاطبها الجديد بأن يكف عن عناده وينسحب من الميدان ، ناجيا بنفسه وشبابه ! .. لكنه لايتردد فى أن يجيبها ــ وهو مايزال مأخوذا بحسنها الصاعق ــ بأن حبه لها سوف يمكنه من حل ألغازها الثلاثة !

وازاء اصراره ، لا تملك الاميرة الا أن تبتسم فى برود .. دون أن تعلق بكلمة .

* * *

• **ويأخذ** « الامتحان » مجراه .. فتسأل الاميرة عاشقها : **« ماهو الشبح الذى يولد كلما حل الظلام ، فيرفرف بأجنحته على جميع الكائنات ، ويلتمس البشر جميعامعاونته ويستجدونه**

.. حتى اذا ما بزغ الفجر ، ذهب من حيث أتى .. كى يولد من جديد فى المساء ؟ »

يلوذ الامير بالصمت لحظات .. ثم يهتف جذلا نشوان : « الجواب أيتها الاميرة هو ما يخالجنى الآن : الامل .. فهو الشبح الذى يولد كل ليلة ، ليموت كل نهار ! »

واذ ذاك ينظر رجال البلاط فى القراطيس الحريرية التى يحملونها ــ والتى سجلت فيها حلول الالغاز ــ ثم يعلنون أن الشاب قد أصاب فى جوابه !

ورغم استياء توراندوت ودهشتها من توصل الشاب الى حل لغزها ، وبهذه السرعة ، فانها تبتسم له مرة أخرى ــ ابتسامتها الباردة المتحجرة ــ وهى تعاجله بلغزها الثانى دون ابطاء :

« ماهو الشىء الشبيه باللهب المضطرم ، وما هو بلهب ! .. الشبيه بالجنون ، وما هو بالجنون ! .. الشبيه بالحمى ، وما هو بحمى ! .. الذى يبرد حين تموت ، ويشتعل حين تحلم بالنصر ! .. اذا أصغيت الى صوته ارتجفت .. وهو مثل الشمس الغاربة ، مصبوغ بضياء قرمزى ! »

ياله من لغز !

يحار الشاب فى حله برهة ، ويكتئب ، سيما وهو يرى نظرات الاميرة الشامتة الساخرة تحدجه ، وجمالها الساحر يخطف أنفاسه ويبهره !

ويجول بخاطر الجميع انه قد فشل وهزم .. ولكن ، فجأة يومض ذهن الفتى بفكرة .. فيهتف بممتحنته : « أيتها الاميرة الجليلة .. الجواب هو : الدم ! »

وكان جوابه صائبا ، هذه المرة أيضا !

ويثير نجاحه حماسة السامعين ، فيشجعونه هاتفين : « احتفظ بثباتك الى النهاية ، يا كاشف الالغاز ! » .. فتصيح

بهم الاميرة طالبة أن يصمتوا . انها قد بدأت تنزعج ، ويشتعل غضبها .. ما من أحد استطاع قبلا أن يحل لغزين من ألغازها المستعصية !

ومن ثم نراها تهبط درجات سلم العرش ، حتى تبلغ مكان الشاب الراكع على ركبتيـه ، فتهمس له بلغزها الثـالث ، فى فحيح وحشى شبيه بفحيح الافعى ، وهى تدنى شفتيهـا من شفتيه حتى لتكاد تلصقهمـا بفمـه ، آمـلة من وراء ذلك أن تشتت أفكار غريمها وتشل ذهنه باغراء فتنتها العارمة ! ..

« ماهو الشىء البارد كالثلج ، الذى يشعل فيك النار ! ؟ .. صفاؤه كالنهار ، لكنه غامض لا يسبر غوره . قوته كفيلة بأن تطلقك حرا ، أو تجعلك عبدا .. ومن العبودية تصير ملكا !؟ »

ومرة أخرى ، يعتمـد الامير « خلف » رأسـه بين كفيه ، حائرا .. بينما تكرر الاميرة سؤاله ، شـامتة : « ماهو هـذا الثلج الذى يتحول الى نار .. أيها الغريب ؟ »

وفجأة يهتدى « خلف » الى الجواب ، وقد أذكى الحب قوة ذهنه ، بدلا من أن يخمدها ! .. فينهض واقفـا ، ويصـيح فرحا : الجواب هـو : « توراندوت » ! .. أنت الثلج الذى يشعل فى النار .. لـكن حرارة حبى سـوف تذيب الثلج من قلبك أيتها الاميرة ! »

ومرة أخرى يستشير رجال الحاشية قراطيسهم الحريرية .. ثم يعلنون أن هذا الجواب الثالث بدوره،هو الحل الصائب !

وتدوى عاصفة صاخبة من التصفيق والهتاف .. بينمـا تتراجع الاميرة « توراندوت » الى الخلف غاضـبة ثائرة ! .. كيف لا وقد اهتدى الخاطب الذكى الى حلول ألغازها الثـلاثة المستعصية ؟ .. انها سوف تضـطر الآن الى الوفاء بوعـدها الملكى .. بالزواج من صاحب الحلول الصائبة !

وتبذل العاصية محاولة أخيرة للتحلل من عهدها ، فتتوسل

الى والدها الامبراطور من أن يعفيها من أن تساق الى أحضان الامير الاجنبى كما يساق العبيد ، الامر الكفيل بأن يقتلها خجلا وعارا .. لكن الامبراطور يعترض على طلبها قائلا : ان وعد الحر دين مقدس فى ذمته ، وان الخاطب الشاب قد جاز الامتحان بنجاح لا سبيل الى الطعن فيه !

وهنا يخف الامير « خلف » فى شهامة الى انقاذ الاميرة الغاضبة من مأزقها فيتيح لها فرصة أخيرة للتحلل من وعدها .. يقول لها : « لقد اهتديت الى حل ألغازك الثلاثة .. لكنى أعفيك من تنفيذ وعدك لى بالزواج ، اذا استطعت ـ قبل الصباح ـ حل لغز واحد أطرحه عليك : وهو معرفة اسمى ، الذى تجهلينه تماما ! .. فاذا اهتديت اليه ، حق لك أن تأمرى بقتلي ، كما لو كنت قد فشلت فى حل ألغازك الثلاثة !

- ٣ -

• **فاذا** كان الفصل الثالث ، فقد عدنا الى حيث كنا فى الفصل الاول ، الى الساحة المواجهة لقصر الامبراطور .. حيث يسمع صوت المنادى يعلن الاوامر الجديدة التى أصدرتها الاميرة « توراندوت » ، وهى تقضى بأن لا يأوى واحد من سكان العاصمة الى فراشه ، أو يغمض له جفن ، قبل أن تعرف شخصية الامير الاجنبى المجهول ! .. **وكل من يتجاهل هذا الامر ، أو يهمل فى بذل قصارى جهده للاهتداء الى اسم الامير .. يكون جزاؤه الموت !**

يسمع « خلف » صيغة الامر الجديد ، فيقابله بثبات .. دون أن يهتز له عصب ! .. فهو موقن انه وحده الذى سيبوح باسمه ويكشف الستار عن شخصيته ، فى الوقت المناسب .. وان الشمس لن تعلو فى صفحة السماء حتى تكون « توراندوت » قد أضحت .. عروسه !

* * *

• **يقبل** عليه وزراء البلاط الثلاثة ــ « بنج » ، « بانج » ، « بونج » ــ يعرضون عليه كل مكافأة يطمع فيها : عبيدا .. وذهبا .. وسلطانا .. ومخرجا آمنا من الصين كلها .. فى نظير أن يبوح لهم باسمه !

ولكن ، لا الاغراء والرشوة .. ولا التهديد والوعيد .. تفلح فى زحزحته عن موقفه !

ثم يقبل حرس الاميرة وقد ألقوا القبض على والد الامير ــ « تيمور » ــ والفتاة « ليو » ، اللذين رؤيا يتحدثان الى الشاب، أثناء تجمع الجماهير لرؤية تنفيذ حكم الاعدام فى الامير الفارسى .. ومن ثم فهما لابد يعرفان شخصيته واسمه !

ولحملهما على الادلاء باسم صديقهما الشاب ، **تأمر الاميرة بأن تستخدم معهما وسائل التعذيب .. وليبدأوا بتعذيب الشيخ « تيمور » !**

وهنا تتقدم الفتاة « ليو » فى شهامة وجسارة ، لتفتدى سيدها ومولاها ملك التتار ــ ووالد محبوبها ! ــ معلنة انها وحدها التى تعرف اسم الشاب ، ولا أحد غيرها ! .. فيسوقونها الى حيث تسام أبشع ألوان العذاب ، ولكن دون جدوى .. فانها تصمد الى النهاية ، وتأبى أن تبوح بالاسم !

وحين تعجز عن احتمال آلام التعذيب المبرحه ، تختطف خنجر جندى قريب منها وتطعن به نفسها ، طعنة قاتلة !

وتحمل جثتها بعيدا ، يتبعها الشيخ المسن « تيمور » ، ومن تجمع حولهم من الناس ..

* * *

• **ويبقى** « خلف » وتوراندوت ، بمفردهما ، وقد غطت الاميرة وجهها بنقاب .. فيوبخها الشاب على وحشيتها التى

أدت الى انتحار الفتاة المسكينة .. ثم يغلبه حبه وشوقه اليها ، فيمزق النقاب الذى يحجب وجهها – فى جرأة – كى يمتع بصره بحسنها الذى سباه .. واذ ذاك تصيح به الاميرة غاضبة بسبب اجترائه على شخصها – وهى التى يوقرها الشعب بأسره باعتبارها « ابنة السماء » – ثم تتحداه وهى شبه ذاهلة من جسارته ، أن يتقدم نحوها خطوة أخرى .. ان استطاع !

لكن « حلف » – وقد وثق الآن من نفسه ، ومنها – يندفع نحوها وهو نشوان، فيحتضن جسدها المستسلم المتداعى بين ذراعيه .. وينهال عليها لثما وتقبيلا ، بكل ما أودع الحب فى قلبه من حرارة وشوق ، وقد أدرك انه انتصر ، وأن قلب « توراندوت » بات يخفق الآن بالحب الدافىء الذى طالما أنكرته على نفسها !

وانها لتحس مثل ما يحس ، لكنها تكابر .. ثم لاتلبث أن تخور بين ساعديه الحانيتين ، ويذوب فى حرارة عناقه كل جبروتها .. ووحشيتها .. وجرأتها وعنادها !

ان سلطانها قد زال !

***

• **ويلوح** الفجر، مؤذنا بيوم جديد.. فتبكى «توراندوت» بين ذراعى « خلف » ، وتسأله فى مذلة أن يفضى اليها باسمه الذى يخفيه ، زاعمة انها ماعادت تطمع فى أن تنتصر عليه.. فيجيبها – فى شهامة ، وقد وثق من سيطرته عليها – بأنه هو بدوره ماعاد يطمع فى أن ينتصر عليها، ومن ثم لم يعد لديه سر يحرص على اخفائه .. ويبادرها : « أنا خلف بن تيمور ، ملك التتار المنفى ! .. هأنذا أعطيك اسمى ، ومع اسمى حياتى ! »

وهنا يبدو أن «توراندوت» القديمة .. المتوحشة الحسناء،

ذات القلب المتحجر .. قد عادت الى الحياة مرة أخرى ! ..
فان الفوز لا يلبث أن يلمع فى عينيها ، وتعلن الى الامير الشاب انها ـ وقد عرفت اسمه ـ تعد نفسها المنتصرة.. والآن فعليه أن يتبعها صاغرا الى قاعة العرش .. حيث يتحدد مصيره !

* * *

• **وتدوى** الابواق .. وينفخ فى النفير ، اعلانا عن اجتماع مجلس البلاط .. ولا نلبث أن نجدنا فى قاعة العرش من جديد .. وحين تكتمل هيئة المجلس ، **تستدير « توراندوت » الى أبيها الامبراطور ومستشاريه ، معلنة أنها قد توصلت الى اكتشاف اسم المجهول الذى حل ألغازها الثلاثة ، وعرفت سره الخفى !**
.. ثم تضيف ـ وقد أشرقت على فمها ابتسامة سعيدة عذبة ، تفصح عن أن قلبها الذى كان فى الماضى باردا قاسيا ، قد امتلأ الآن دفئا ورقة ـ تضيف قائلة :
ـ ان اسم هذا المجهول هو .. الحب !

* * *

• **هذه** هى قصة الاوبرا التى صاغها خيال الغرب عن الصين القديمة ـ وان كنت أجهل مصدر الفكرة التى بنيت عليها ، وهل هى فكرة من خلق خيال مؤلفها ، أم هى مستوحاة من احدى الاساطير الصينية القديمة ؟ ـ ولكن ، على أى من الفرضين ، **ألا ترى معى أن فكرة الالغاز التى ينجو من يحلها ، من الموت .. انما هى قريبة الشبه من فكرة اللغز فى أسطورة « أوديب » الاغريقية المعروفة ، (التى تستطيع أن تقرأ قصتها كاملة فى العدد الثامن من « مطبوعات كتابى ») ؟** ـ وبهذه المناسبة ، دعنى أحيلك الى الموضوع الشائق الذى تقرأه فى هذا العدد ،

تحت عنوان « هكذا قالت الآلهة ! » ، وقد وفى فيه المؤرخ الفنان « ماتانيا » موضوع النبوءات عند الاغريق القدماء ،حقها من البحث ..

* * *

• **ولنعد** من هذا الاستطراد الى حيث وقفت بك فى نهاية الفصل السابق ، فى ختام حديثى عن سيرة الزعيم الصينى الكبير دكتور « سن يات سن » ، حيث وعدتك بأن نزور معا ضريح هذا الزعيم فى مدينة (نانكنج) ، العاصمة الثانية للصين .

ويقع الضريح المذكور ــ الذى يعتبر فى نظرى أعظم ضريح من أضرحة عظماء العالم ، بلا استثناء ! ــ على سفح « الجبل القرمزى » ، **وهو بقعة ساحرة من ضواحى (نانكنج) قال الاستاذ أحمد نجيب هاشم يومئذ ، ونحن نتأمل جمالها الخلاب ، انها تذكره بضواحى مدينة(واشنجتون)الامريكية ، الى حد أنه لا يكاد يصدق أن بين المدينتين عشرات الآلاف من الاميال ، وأن احداهما فى أقصى الغرب من الكرة الارضية ، والاخرى فى أقصى الشرق ! ..** فحيثما أدرت بصرك فى تلك الضاحية « الفردوسية » ، تطالعك « لوحة » باهرة من لوحات الطبيعة الخلابة ، اختلط فيها لون القرمز الغريب الذى يكلل هامات الاشجار ويكسو سفوح الجبل ، بلون الخضرة الصافية التى يصطبغ بها بساط الارض السندسى الذى التمعت عليه ساعتئذ ذرات من رذاذ المطر الخفيف ، الشبيه بالندى ، الذى كان يدغدغ وجوهنا فى ذلك الضحى الجميل من أيام نوفمبر الماضى ..

والحق انى لم أومن بمدى دقة الفن الصينى الا ساعتئذ ، حين وقفت فوق قمة البرج الشاهق ــ (الباجودا) ــ المطل

على سفح « الجبل القرمزى » ، فاذا تموجات هامات الغابات القرمزية والخضراء ، التى تكسو السفح والسهـل ، الى مدى البصر .. اذا بهـا تبعث فى ذاكرتى - وتجسم فى ناظرى - رسوما ملونة مشهورة من روائع الفن الصينى طالما رأيتها ، فى مختلف المناسبات ، فكنت أحسبها من وحى خيال مغرق فى المغالاة .. خيال يضفي على الطبيعة جمـالا يفـوق الواقع ، ويبتكر لها ألوانا غريبة ، لا وجود لها فى الحقيقة ..

ذلك كان ظنى، حتى رأيت تلك البقعة من ضواحى (نانكنج) - ورأيت فى نفس الاسبوع حديقة قصر الامبراطور ، أو « المدينة المحـرمة » ، فى (بكين) - **فآمنت فى طرفة عين بأن اللوحات المرسومة يمـكن أن تـكون أصدق وأدق تصويرا للواقع من عدسة « الكاميرا » ، أو الصـورة الشمسيـة الملونة بالالوان الطبيعية !**

فى تلك البقعة الساحرة ، وعلى سفح ذلك الجبل ، أقامت الصين لباعث نهضتها، وزعيم ثورتها الديموقراطية الكبرى - الدكتور « سن يات سن » - ذلك الضريح العجيب ، (الذى نشرت لك صورة له فى العدد الماضى) ، والذى يعتبر آية من آيات تكريم الاوطان لزعمائها المخلصين .. كما يعتبر فى الوقت نفسه، آية من آيات هندسة المعمار ! .. كيف لا وقد استطاع الفن الهندسى أن يحول جزءا من سفح الجبل الى سلم هائل مستقيم ، يصعد نحو قمة الجبل - وكأنه يمضى نحو عنان السماء ! - دون أن يلتوى أو ينحرف .. سلم ضخم رائع ، لا تبلغ العين نهايته .. سلم من أربعمائة درجة ، لا يقل عرضها عن ثمانين مترا ! - (ولكى نتصور مدى عرض هذا السلم ، نستطيع أن نعتبره يقرب من ثلاثة أمثال أعرض شارع من شوارع العواصم الكبرى !)

والى العدد القادم ، لنواصل الحديث ..



الهواية المثالية لابنتك .. أو ابنك

هل تريدين أن تصبح ابنتك مرموقة في المجتمع ؟ .. وتمارس هواية رفيعة تشغل بها أوقات فراغها ، وتسامى بأفكارها ؟

إذن شجعي المواهب الموسيقية في ابنتك أو ابنك ، بتعليمها العزف على البيانو .. في



معهد البيانو والباليه
والرقص الإيقاعي ، والغناء الكلاسيكي

المركز الرئيسي بالزمالك : ٢٣ شارع حسن صبري ، شقة ٢٧

تديره نخبة من خريجات كلية لندن الملكية للموسيقى ، وكلية "ترينيتي" بلندن .

للاستعلامات : خابروا تليفون ٦١٦٢٤

لن تعدلوا!

قصة مصرية

بقلم

صالح جودت



كان صديقى حسان يعيش فى تجربة اجتماعية جميلة .. جميلة بالنسبة لى على الاقل ، فقد أفدت منها قصة أقدمها للقراء !

تزوج صديقى حسان ، بعد تخرجه فى الجامعة مباشرة ، وكان يومئذ لا يتجاوز الثانية والعشرين ، عقب حب عاصف خاطف ، لم يتجاوز ساعة لقاء فى مأتم بعض أقربائه .

وهو اذ يحدثك عن هذه الزيجة ، يقول لك : « لقد تزوجت بالسكتة ! »

وزوجته هذه « جيهان » ، شابة باهرة ، فارعة القامة ، ذهبية الشعر ، زمردية العينين .

وهى لاتزال باهرة حتى ساعة كتابة هذه القصة ، رغم أنها لاتصغره — وهو الآن يناهز الاربعين — بأكثر من عامين .. هذا فى حسابنا نحن ، أما فى حساب النساء فان جيهان تقسم بأغلظ الايمان أنها ستتم الثامنة والعشرين بعد شهرين .. دائما بعد شهرين !

ولست أدرى كيف تستطيع أن توفق بين حسابها وحسابنا، وابنها البكر — لطفى — بسم الله ماشاء الله — فى الجامعة منذ عامين !

ولا أزعم اننى كنت أعرف الكثير من دخائل بيتهما ، ولكن الذى أعرفه أن الناس كانت تحسده على هذه الزوجة الباهرة، فكان اذا خرج بها الى المجتمع . الى سهرة أو سينما أو مسرح، يعانى الكثير من نظرات الناس اليها ، فانها كانت كما قلت لك باهرة الى حد أنك لاتجد أكثر من اثنتين أو ثلاث فى مثل جمالها فى كل الحى الذى يسكنانه .. المنيرة .

ومع هذا .. فقد كان صديقى حسان دائما ، الرجل الهارب من البيت ، وقد يسره أن يجلس فى مقهى وحده .. ويسعده

أن يجالس راقصـة سـمراء أصلها خادمة ، لانه يرى منهـا ابتسامة حلوة ، أو يسمع منها كلمة لطيفة .

أما فى بيته .. فكان الجحيم !

كانت « جيهان » عصبية ، من ذلك النوع من النساء الثائر على كل شيء ، الساخط على البيت والزوج والاولاد والحياة ، ذلك النوع الذى يتمنى الموت فى كل لحظة !

وكان جواب حسان على ثوراتها دائما .. كلمة ساخرة :

ـ أنا الحق على .. ألم أتزوجك من مأتم ؟ !

وكانت هـذه الكلمة كفيلة بأن تنزح قدحا من الدموع من عينى جيهان .. المسكينة !

وكان يعجبنى دائما فى صـديقى حسـان ، أنه رغم هـذا الجحيم لم يفكر مرة واحدة فى الخلاص منه .. مع ان سبيل الخلاص عندنا كله يسر .. لايكلفنا الا كلمة واحدة : الطلاق !

هكذا كان ايمانه .. كان يكره أبغض حلال ، ولو كلفه ذلك الكره سعادة حياته !

* * *

ومنذ عام واحد .. قل تردد صـديقى حسان على المقهى الذى تلتقى فيه عصبتنا كل مساء .. ومرت أيام وأسابيع ، لم يأتنا خلالها الا غرارا .

وكان يقبل ، وفيه كل مرة شيء جديد لم نألفه من قبل .. مبالغة فى التأنق على عكس شأنه .. أو ابتسـامة كلها أمل ، بعد أن كان اليأس يملأ رحاب نفسه .. أو لمعة فى عينيه اللتين طالما أطفأهما صخب الليل مع جيهان .

وتهامسنا واغتبناه كثيرا ، وقلنا هذه أعراض حب جديد .

ولكن صاحبنا أحمد ابراهيم ، الذى لا لذة له فى الدنيـا الا استقصاء أخبار الناس ، ليجعل منها مادة ناجحـة لحـديث المقاهى ، جاءنا ذات يوم يسر الينا أن صديقنا حسان قدتزوج مرة ثانية !

تزوج وهو فى الاربعين .. وزوجته التى نعرفها باهرة يحسده عليها الجميع ؟ وأولاده خمسة ؟ وابنه البكر فى الجامعة ؟ !

قال أحمد ابراهيم :

ــ والله العظيم تزوج !

ــ ومن تكون ؟

ــ صبية فى ربيعها الثامن عشر . لون آخر من النساء ، نقيض لزوجته الاولى جيهان .

واستزدناه وصفا لها ، فزادنا :

ــ بنت لطيفة ، ساذجة ، سمراء ، ضئيلة ناحلة ، تحملها على كفيك فى سهولة ويسر، من النوع الذى يسميهالفرنسيون « مينيون » .. تشبه الى حد كبير « سميرة » ، الراقصة التى أصلها خادمة ، التى تمر بنا فى المقهى بين حين وآخر لنشترى لها علبة سجاير أو شيئا من الحلوى مقابل أن نضاحكها وتضاحكنا فقط .. والتى يطمئن حسان اليها اطمئنانا بريئا لاينتهى الى غاية .

كأن النبأ يستحق الاهتمام ، ويضاعف من قيمته ما أضافه صاحبنا أحمد ابراهيم ، من أن حسان يؤوى زوجتيه تحت سقف واحد ، فى بيته القديم نفسه بالمنيرة !

ولم يصدق بعضنا ، وصدق البعض الآخر .

أما أنا ، فقد أحسست حيرة فى أمر حسان ، كيف احتمل هذا الجحيم مع زوجته الاولى زهاء عشرين سنة ، دون أن يحاول الخلاص منه بكلمة واحدة ، لانه يكره الكلمة .. ثم كيف يتزوج أخرى ؟

أى الحالين اذن أبغض من الآخر ؟ الطلاق .. أم تعدد الزوجات ؟

ثم فكرت فى جيهان .. وكيف استقبلت الصدمة ، وكيف احتملتها ! .. جيهان ، العصبية الثائرة الساخطة،التى تتمنى

الموت دائما ، **ترى لو خيرت بين كلمة من اثنتين : الطلاق ، أو الضرة ، فأيتهما تختار ؟**

ولكن .. لم هذا التساؤل ، وجيهان قد اختارت بالفعل ، والدليل انها تقيم مع الزوجة الجديدة تحت سقف واحد ؟

* * *

شغلتنى قضية حسان كثيرا

ثم أقبل العيد ، فوجدت فرصة سانحة لزيارة البيت الذى تجتمع فيه ضرتان تحت سقف واحد !

والعيد حجة لطيفة ، كيلو من الشوكولاتة فى يدى لاولاد حسان،يعتبر تذكرة دخول الى البيت الذى تعيش فيه ضرتان تحت سقف واحد !

وأخذت كيلو الشوكولاتة،واستقبلنى حسان شاكرا ممتنا :

ـ طول عمرك صاحب جمايل

ـ أستغفر الله ، دول أولادى يا حسان ، وازاى الهانم ؟ ان شاء الله تكون بخير

وهنا نظر الى حسان نظرة فيها أبتسامة ، فوضعت على وجهى قناعا من البلاهة ، فسألنى :

ـ أى الهانمين تقصد ؟ ألم تسمع ؟

وأضفت الى قناع البلاهة قناعا من السذاجة وقلت :

ـ أسمع ؟

ـ بشرفك ألم تسمع ؟

وهنا لم أملك أن أمضى فى الانكار ، فقلت :

ـ ما دمت تستحلفنى ، فقد سمعت

ـ ماذا سمعت ؟

ـ ان فى هذا البيت ضرتين

ـ أجل يا صديقى،اننى أعيش فى تجربة اجتماعية جميلة .. جميلة جدا .. أنت لا تتصور الجحيم الذى كنت أعيش فيه

مع جيهان ، ولا تتصور أيضا الجنة ، بل الجنتين اللتين أعيش فيهما الآن !

ـ مع جيهان وضرتها ؟

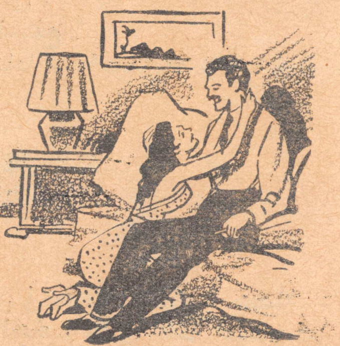
ـ نعم . ان عيب جيهان أنها جميلة ، وأنها بجمـالها هـذا كانت تستطيع أن تتزوج من هو خير منى ألف مرة ، لولا سوء الحظ الذى جمعنى واياها فى مأتم .

وسكت حسان لحظة ، ثم استطرد يقول :

ـ كانت « فرعونة » .. ولم يستطع مر السنين وكثرة الاولاد أن تخفف من فرعنتها .. الى أن جاءت « قدرية »

ـ ومن تكون قدرية ؟

ـ زوجتى الثانية .. جاءت فكسرت أنفها ، وعلى صوت دخول قدرية أفاقت جيهان الى جميع الحقائق .. أدركت أنها لم تعد تلك الطفلة المدللة التى يحق لها أن تصخب وتستكبر ، وأنا أذل وأتواضع .. أدركت أن الرجـل الذى استسلم لها طوال هذه السنين ، لم يستسلم لانه لا يجد غيرها ، بل لقد وجد،ويستطيع أن يجد ثالثة ورابعة،كلهن يصغرنها بعشرين سنة .. أدركت أننى لم أعد أطيق هذا الجحيم ، وأننى كنت أستطيع ، ولا أزال أستطيع ، ان أنجو من جحيمهـا بـكلمة واحدة،ولكنى رحمتها من هذه الكلمة .



ـ وبعد ؟

ـ جـاءت قدرية ، فـرأت جيهان كيف تستطيع المرأة أن تكون لرجلها قطة أليفة . تجلس فى حجره ، وتلهو بين قدميه ، وتئن أمامه أنينا منغما ، وأحيانا تدلله كالطفل ، والرجل منا كلما

تقدمت به السن ازداد طفولة وحبا للتدليل

رأت جيهان كل هذا ، فبدأت تقلد قدرية وتبالغ فى تقليدها حتى أصبحت الآن أعيش بين جنتين .. عـدن والفردوس ، وهنا أحسست مدار الحكمة فى شريعتنا السمحاء .

— وماذا بين الضرتين ؟ .. وكيف أستقبل الاولاد القادمة الجديدة ؟

— كان هناك وجـوم لايام معـدودات ، ولـكن التجـربة الاجتماعية كشفت لى عن معجزات فى عالم المرأة . فقد أدركت جيهان أن الثورة لن تجديها شيئا ، الا أن تخرجها من البيت الى الطريق ، فسكتت. أما الاولاد فقد وجدوا طفلة جـديدة بينهم ، قريبة من سنهم ، تحاول أن تقترب منهم لتلهو معهم ، فاقتربوا منها ليلعبوا معها ، حتى لكأنها الآن شقيقة جـديدة لهم ، تلهو معهم أكثر النهار .

— تعنى أن الحالة هادئة فى الميدان ؟

— هل عندك تعبير أجمل من هذا ؟ اسمع .. **اننى أحاول أن أعدل بينهما ، فلكل منهما ليلة . وحين يجيء دور قدرية — مثلا — أراها تتجمل وتتزين ، وتحاول أن تبـدو فى أجمل مظاهرها . وهنا أرى جيهـان تصنع أضعـاف ذلك ، تدخل فتلبس أفخر ثيابها ، وتضع أبهى زينتها ، وتترقق وتتنعم ، وتضىء غرفتها بمصباح حالم الضوء ، عسى أن تقع عيني عليها وعلى غرفتها ، وأنا فى الطريق الى قدرية ، فأغير رأيى أو أفكر فيها — على الاقل — وأنا منفرد بقدرية .**

— يا لقدرة النساء !

— وقدرية تفعل هذا تماما هى الاخرى ، حينما تكون الليلة ليلة جيهان .. ألم أقل لك اننى أعيش فى تجـربة اجتماعية جميلة ؟

وتطلع حسان الى الباب ، ليتأكد من أن أحدا لا يسمعه ، ومضى يقول بصوت خافت :

ـ وأحيانا .. تحدث أشياء لطيفة ، أحيانا .. نكون جميعا على المائدة ، وأطعم احداهما لقمة فى فمها من قبيل التدليل ، فتغار الاخرى وتهم بمغادرة المائدة بدعوى المغص المفاجىء ، أو فقدان الشهية، فأتمسك بها وأستحلفها وأدللها بلقمةفى فمها .. يزول معها المغص وتتفتح الشهية من جديد !

وضحكت .. ضحكت لطبيعة المرأة التى لا تتنازل عن الثأر حتى تأخذه فورا ، وقال حسان :

ـ وأحيانا،تمرض احداهما وطبيعى أن تفوز المريضةبمزيد من العطف ، وهنا ، أجد الثانية تبادر الى ادعاء المرض هى الاخرى ، حتى تفوز بمثل هذا المزيد من العطف !

وضحكت مرة ثانية ، وضحك حسان معى وهو يقول :

ـ ألم أقل لك اننى أعيش فى تجربة اجتماعية جميلة ؟

* * *

خرجت من عند حسان يومئذ ، وأنا أتصور جمال هاتين الجنتين وأتمنى أن أعيش فى مثلهما .

ولعل الفكرة راودتنى أكثر من مرة ، كلما تذكرت حكاية الجنتين بعد الجحيم .

* * *

ومرت الايام ..

الى أن جاءنا حامل الانباء ، صاحبنا أحمد ابراهيم ، ذات يوم يقول :

ـ ألم تسمعوا ؟

ـ خيرا .

ـ صديقنا حسان

ـ ماله ؟

ـ طلق زوجته

ـ أيتهما ؟

ـ لست أدرى ، واحدة منهما ، ولكنى سأعرف ، سأعرف قطعا غدا أو بعد غد على الاكثر .

ـ ولكن .. ماذا حدث ؟ لقد كان يقول انه بهما جد سعيد .

ـ **يتهامسون عن فضيحة لم أعرف تفاصيلها بالضبط .. ولكنى سأعرفها ، وسأرويها لكم قطعا .**

سمعت هذا ، فلم أنتظر ..

ان القصة التى شرعت فى كتابتها يوم زرت حسان فى بيته يوم العيد ، كانت فى حاجة الى نهاية .

ترى هل أجد النهاية عنده اليوم ؟

ذهبت اليه ، واستقبلنى فى هذه المرة استقبالا هادئا ، وقد ذهبت الفرحة التى كان يعيش فيها ، ورأيت لاول مرة خطوط العمر مسطورة على جبينه وبين حاجبيه .. وسألنى :

ـ هل سمعت ؟

ـ أجل ، قلبى معك ، ولكن .. ماذا حدث ؟

ـ ألم أحدثك فى المرة السابقة عن غيرتهما حتى فى المرض ؟

ـ تماما .

ـ الغفلة التى كنت أعيش فيها،هيأت لى أن بنتا فى العشرين تستطيع أن تحب رجلا مثلى فى الاربعين ، والآن .. عرفت أن مثل هذه العاطفة لا يمكن أن تعيش طويلا ، وهذا ما حدث .. **فقبل أن ينقضى على زواجنا عام واحد ، راودت قدرية أحلام الشباب ، أحلامها بشاب بين الخامسة والعشرين والثلاثين ، يراقصها ، ويلاعبها ، ويلهو معها ، ويلهو بها ، ويتفرغ لها ، الى أن وجدته هنا فى البيت ، فى شخص المدرس الشاب الذى يعطى أولادى الدروس الخاصة فى اللغة الانجليزية .**

قلت له :

ـ معقول .

ـ معقول جدا! .. هذا ما أقدره الآن ، ولكنى حينما سمعت جيهان وأولادها يتهامسون،اعتقدت أنها مؤامرة منهم

ضد قدرية ، ثم لم يلبث الهمس أن علا حتى أصبح صوتا مرتفعا ، وتجاوز هذا البيت الى الشارع ، الى الكواء والبدال والقصاب ، ووصل الى الديوان !

وحملقت عيناه ، وصاح يصف لى ما حدث له :

— جن جنونى ،أجل، أصبح كل شىء أصنعه غير معقول . . نسيت جيهان بالمرة ، ونسيت أولادى أيضا ، ونسيت أننى موظف ، موظف مسئول أمام الدولة . . وأمام الله والناس . . فلم أعد أجلس الى مكتبى الا غرارا ، **وأصبحت صورة قدرية وعشيقها تطاردنى فى كل مكان . . هل تصدق؟ضربت الشاب وطردته من البيت ، وضربتها هى وحبستها فى البيت ، وقطعت أسلاك التليفون ، وجعلت أقضى الساعات الطوال أراقبه تحت نافذة بيته ، وتحت نافذة مدرسته ، وفى كل مكان يتردد عليه . .** ولم أعد أدخل غرفة جيهان . . كل ليلة عند قدرية ، أتملاها بحب وحقد وسخط وجنون ، أخشى أن أتركها لحظة فتفلت من يدى ، أو تطل من نافذة يكون هو منتظرا تحتها . . وأقلب غرفتها كل ليلة رأسا على عقب ، عسى أن يكون هناك خطاب منه اليها . . أو دليل على الجريمة !



— مسكين !

— نعم مسكين ! ارث لى يا صديقى ، هنا كان الجحيم ، لا الذى تصورته فى حياتى الاولى الصاخبة مع جيهان ، ومع ذلك فان ما حدث بعدئذ كان أفظع !

— وماذا يمكن أن يكون أفظع من ذلك ؟

ـ جيهان . . . جاءتنى جيهان يوما وأنا وسط هذه المعمعة ، ترتمى على قدمى تقبلهما باكية،مجنونة الاعصاب،تصرخ بى :
ـ أنقذنى ، لا تعذبنى ، لا تلق بى الى الشيطان !
وهدأ صوت حسان قليلا ، ثم استطرد يقول :
ـ ألم أذكر لك أنها كانت تغار من اللقمة التى أطعمها لقدرية فى فمها ؟ تغار منها حتى فى المرض ، اذا أصاب قدرية ادعته هى الاخرى ؟
ـ طبيعى .
أجل . . . هذا ما أقدره الآن ، **والذى حدث ، أنها رأت أن قدرية فى خيانتها قد استأثرت بى،بكل رأسى وقلبى وحياتى، حتى نسيت أن لى زوجة أخرى لها على حقوق ، وأن لى أولادا يستحقون منى بعض الاهتمام ، أفتدرى ماذا صنعت ؟**
ـ خانت هى الاخرى ؟ !
ـ همت بالخيانة ، لا لوجه الخيانة ، بل لتحس بوجودها . . لتظفر بشىء من اهتمامى الذى انتزعته قدرية كله ، لتسترد ليلتها المفقودة ولو على أقسى الصور !
ـ جيهان تخون ؟ هذا ما لا أتصوره !
ـ تصور ! . . جيهان . . التى أغراها فى شبابها ألف شيطان، فكانت كالجبل الصلد ، تصنع هذا وهى على أبواب الاربعين! جيهان . . الطهر بعينه . . أوشكت قدمها أن تزل !
ـ ولكنها لم تزل ، طبعا !
ـ ألقت شباكها على أقرب رجل الى يدها . . زميل لى فى الديوان كان يتردد على فى بعض الاحيان لمقتضيات العمل . وكانت تكرهه طول عمرها لسبب لا أدريه ، **فلما هبت فيها غريزة الانثى ، لم تجد أقرب منه ، فاستمالته ، وأوشكت أن تقع . . وفى اللحظة الاخيرة استيقظ الطهر العميق فى نفسها ، فلم تذهب الى أول موعد بينهما،بل جاءت ترتمى على أقدامى . . وتصرخ : لا تلق بى الى الشيطان !**

ـ يا للجنتين اللتين عشت بينهمـا .. كيف انقلبتـا الى جحيمين !

ـ هنا عرفت الحق،عرفت أن جيهان هى المرأة التى لا يمكن أن تخون ، فأنقذتها وألقيت بقدرية .

وأدركت حكمة الآيتين « فان خفتم الا تعدلوا فواحدة ، ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم .. »



هكذا قالت الآلهة!

بقلم وريشة الفنان المؤرخ :
"ف . ماتانيا"



كان الكهنة يحملون الآلهة على الكلام !

• الرغبة فى استقراء الغيب ، ومعرفة مايخبئه المستقبل ، رغبة دفينة فى النفس الانسانية منذ أقدم العصور ، حتى لقد كان للعرافة والتنبؤ - فى بعض عهود الوثنية - قداسة تجعلهما من أركان العقائد الدينية ، وتجعل لهما طقوسا قدسية .. وبلغ من أهمية «النبوءات» ، انها وردت فى كثير من أحداث التاريخ المصرى والاغريقى والرومانى .. وقد عنى البحاثة القصصى الفنان « فورتوناتو ماتانيا » - الذى حدثناك عنه فى العدد الماضى من « كتابى » - بتقصى أصول العرافة وطقوسها ، فى هذا البحث القيم ، الذى نلخصه لك فى الصفحات التالية ، وننشر لك معه لوحات من رسم هذا الفنان النابغة

فتعال نرتد الى أقدم عصور التاريخ ، لنعيش لحظات مع العرافين والكهنة الموكلين بالنبوءات ، ولنستعرض الاحداث الطريفة التى كانت أصابعهم توجهها .. ولسوف ترى أن العرافين والكهنة الوثنيين كانوا يسلكون أساليب فى التحايل والخداع ، تكاد تشبه الاساليب التى يتبعها « المنجمون » فى هذه الايام ، رغم مرور عشرات القرون !

• **كان** للنبوءات - فى مختلف العصور ، لاسيما القديم منها - نفوذ ذو قداسة على الافراد ، اذ كان الاعتقاد السائد انها من وحى الآلهة . ولقد كان « سقراط » - وهو الحكيم الذى لم يبزه حكيم - يؤمن بصحة النبوءات حتى آخر لحظات عمره .. اللحظة التى شرب فيها السم . وقد حرص على أن يهدى الى « ايسكولوبيس » ديكا ، قبل أن يفارق الحياة ، ايمانا منه بأن هذا كفيل بأن يخفف عنه آلام الموت !

ولقد وصف « شيشيرون » النبوءات بأنها « كلام قدسى لايأتيه الباطل من اية ناحية » ! .. وكم من حكماء وملوك وأمراء وقادة كانوا يلجأون الى العرافين والعرافات فى المعابد ، يستطلعون مشورة الآلهة ، ويستقرأون الغيب قبل الاقدام على أى عمل هام .

وكان أهل الفكرة والحكمة الذين لايؤمنون بالنبوءات ،

يتحاشون تكذيبها أو تسفيهها ، خشية أن يعرضهم الانتقاد لنقمة الآلهة .. وقد أورد « هيرودوت » ـ المؤرخ الخالد الذكر ـ كثيرا من المناسبات المتعلقة بذلك ، فذكرها بأسلوب محايد ، فلم يتحمس لتأكيدها ، ولا أبدى ريبا فى صحتها ، من ذلك ماذكره عن « جايجز » عندما قتل مولاه الملك « كاندوليز » وغدا ملكا على اللوديين . فقد ثار الشعب ، اباء منه أن يكون العبد الوضيع الاصل ملكا عليه ، لولا أن اقترح البعض أن يلجأ القوم الى معبد (دلفى) ، فيطلبوا من الكهنة نبوءة الآلهة .. وجاءت النبوءة موحية بأن «جايجز» وسلالته قد قدر لهم أن يحكموا اللوديين ، ولكن .. « سيتم الانتقام لاسرة هرقليديا ـ التى كان الملك القتيل ينتمى اليها ـ فى الحفيد الخامس لجايجز» .. وكان هذا الحفيد هو كرويسس (الذى عرف لدى العرب باسم قارون ـ اقرأ سيرته فى « كتابى » العدد ٦٨)

يختبر الكهنة الموكلين بالنبوءات

• **ولقد** لقى « كرويسس » فى حياته مآسى وآلاما ، يبدو انها زعزعت ثقته فى صدق العرافين والعرافات الذين كانوا يتولون استخلاص النبوءات من الآلهة . فلما اشتدت قوة الفرس ، وخشى على ملكه ، فكر فى محاربتهم . وكان لابد من أن يستشير الآلهة ، ولكنه رأى أن يختبر أولا مدى صدق الكهنة الذين يفسرون ايحاءات تلك الآلهة. فأرسل وفودا الى جميع المعابد الكبرى فى أنحاء مملكته ، وزودها بتعليمات تقضى بأن تتقدم هذه الوفود الى العرافين والعرافات فى يوم معين بالذات ، فتسألهم عما يفعله « كرويسس » فى ذلك اليوم .

وفى اليوم المحدد ، عمد « كرويسس » ـ فى السر ـ الى قدر نحاسية، وضع فيها قطعتين من لحم سلحفاة ولحم حمل،

وغطاها بصفحة من نحاس ، وأوقد تحتها نارا !

وجاءت الوفود باجابات كان بعضها غير صحيح ، وبعضها مبهم غامض .. ولكن كاهنة معبد « دلفى » ، قالت : « اننى اشم رائحة سلحفاة تغلى على نار .. من تحتها نحاس ، ونحاس فوقها ! »

ولقد كانت للنبوءات معابد خاصة ، لعل أول ماورد ذكره منها فى سجل تاريخى ، هو معبد « جوبيتر » الذى كان يقوم فى (دوندونا) ، على حوالى ستين ميلا من (كورفو) فى بلاد اليونان . وكان هذا المعبد مقاما وسط غابة كثيفة من أشجار البلوط الغليظة ، كان الموغل فيها – ساعيا الى المعبد – يشعر برهبة عميقة شاملة ، اذ علقت بمئات الاغصان طبول وطنابير من النحاس والقصدير ، كانت ترسل أصواتا جوفاء ، عميقة ، فى أرجاء الغابة ، كلما سرت نسمة من النسمات ! .. كما كان الكهنة يحدثون أصواتا مخيفة ، تسرى فى الجو الذى تسدل عليه كثافة الاشجار نوعا من التكتم والعزلة . **وكان الاعتقاد السائد ، ان « جوبيتر » هو الذى كان يتكلم خلال هذه الاصوات ، وان الكهنة والكاهنات وحدهم، هم الذين كانوا يملكون لهذه الاشارات الغامضة تفسيرا .** وعندما كان الشخص ينشد نبوءة لامر شخصى ، كان الكهنة يدفعون اليه بصفحتين نحاسيتين يدقهما معا ، بينما ينهمك كاهن وكاهنة فى تدوين بعض العلامات والرموز ، وكأنهما يتلقيان ايحاء خفيا . ثم يعكفان على تفسير ماكتبا ، وينطقان بالنبوءة !

ومن الحيل التى كان الكهنة يعمدون اليها ، للايحاء بقداسة النبوءات ، انهم أقاموا فى مكان آخر من الغابة تمثالا للرب ، وضع بطريقة هندسية دقيقة ، بحيث أن أى صوت يصدر بالقرب منه كان يؤدى الى تحركه . فكان الراغب فى معرفة الغيب يقاد الى هذا التمثال ، ثم يوجه سؤاله ، فيتحرك التمثال ، واذ ذاك يتولى كهنة موكلون بالتنبؤ ، تفسير الحركة!



وعندما كان الشخص ينشد نبوءة ، كان الكهنة يدفعون
اليه بصفحتين نحاسيتين يدقهما معا ..
(لوحة من رسم الفنان ماتانيا)

بين « بئر النسيان » و « بئر التذكر »

• **ومن** مراكز التنبوءات معبد « تروفونيوس » ، الذى كان يقوم على مسافة مائة وعشرين ميلا من المعبد السابق ، وفى وسط يختلف تمام الاختلاف عن وسطه . فلقد كان معبد « تروفونيوس » فى بقعة جبلية تشرف على البحر، فى مواجهة جزيرة (ساموس) تماما . وكان القوم يترددون على هذا المعبد فى مواسم معينة ، فكان الحجاج يقطعون الطريق الوعرة فى عناء ، مارين بخيام صغيرة وأكواخ من الحصير ، يلاحقهم منها نداء الباعة ، ودعوات المتسولين. فاذا ما اقترب الراغبون فى تعرف الطالع من مشارف المعبد ، كان عليهم أن يقوموا بطقوس خاصة تستغرق عدة أيام .

كان على الزائر أن يتطهر أولا ، بأن يقضى بضعة أيام فى خلوة مع الارواح الطيبة ، ممتنعا خلال ذلك عن الشراب ، متبعا نظاما معينا فى الطعام ، زاهدا فى الترف ، حتى لقد كان يحرم عليه أن يغتسل بالماء الدافىء ، فاذا شاء أن يستحم ، جاز له أن يهبط الى نهر (هرسونا) . **وكان عليه أن يقدم القرابين يوميا الى الاله « تروفونيوس » والى أبناء هذا الاله ، وبعض الآلهة الاخرى ، بينها « ديميتر يوروبا » التى رعت « تروفونيوس » فى طفولته . وكانت لحوم القرابين تعرض على كاهن خاص يفحصها ويحكم ـ من بعض علامات خاصة ـ بما اذا كانت تصلح لان تقدم للرب كى ينبىء بالغيب ، ولان تجعل رجاء طالب النبوءة مقبولا لدى الرب !**

وبمجرد أن يتحقق هذا ، كان الكهنة يعهدون بطالب النبوءة الى صبيين فى الثالثة عشرة من العمر ، فيقودانه الى النهر ، حيث يغتسل ، وينضحان جسمه بالماء ثم بالعطور . ويقوده الكهنة بعد ذلك الى « بئر النسيان » ليشرب منها فتزول عن ذهنه كل أفكاره السابقة .. وينتقل بعد ذلك الى « بئر

التذكر » ، فيشرب منها لكى يرسخ فى ذهنه كل مايراه فى اللحظة الحاسمة . ثم يقدم له الكهنة نعلين من نوع خاص ، وثيابا من التيل الابيض الناصع ، وحزاما ــ أو زنارا ــ يحيط به وسطه .

نبوءات من الاحلام

• **وكان** طالب النبوءة يقاد بعد ذلك الى كهف عميق ، يهبط الى جوفه على سلم ، فيجد جدارا شبه عمودى ، فى مدخل ضيق ومنخفض ، لايتسع لغير شخص واحد . ويؤمر بأن يستلقى على ظهره ــ على الارض ــ وقدماه نحو ثغرة فى الجدار ، لاتسمح بمرور جسده الا فى هذا الوضع .. وسرعان مايجذب من قدميه الى داخل الفجوة ، بسرعة البرق ، فيجد نفسه فى كهف مظلم لايستبين فيه شيئا .

وهناك يفاجأ بأشباح منيرة غريبة .. وتمر به لحظات من الصمت المطلق ، بينما تمر به لحظات مليئة بالضجيج ، وبأصوات غريبة ، تنطق بكلمات مبهمة ، أو بعواء رهيب .. ثم يصدر اليه الامر بالانصراف كما جاء ، فيخرج مشدوها ، مشتت الحواس ، مبهور الانفاس . فيجلس على مقعد « نيموسين » ، اله التذكر . ويعنى به الكهنة حتى يتمالك جأشه ، ويسترد اتزان عقله . واذ ذاك ، يفسر له كاهن عراف كل مارأى وما سمع

وكانت هناك أساليب أخرى للتنبؤ ، لعل أشهرها تأويل الاحلام . وأشهر معبد كان يتبع هذا الاسلوب لدى الاغريق ، هو معبد آخر للاله « تروفونيوس » ، القريب من مدينة (ثيبيس) ــ طيبة ــ الاغريقية . فكان على طالب النبوءة أن يقدم قرابين بينها كبش كبير ، ثم يتخذ من جلد هذا الكبش فراشا ، ينام عليه فى عزلة . فاذا رأى فى نومه حلما ، تولى

كاهن خاص استخلاص النبوءة المنشودة من الحلم .
وقد كان « تروفونيوس » من الابطال الذين رفعوا الى درجة الالوهية .

العراف الذى أصبح ملكاً

• **ولقد** كان من أشهر العرافين لدى الاغريق ، رجل يدعى « أمفيراوس » ، عرف منذ حداثته بعبقريته فى المشورة ونصح الناس — فى أزماتهم وضائقاتهم — وبراعته فى استقراء الطالع عن طريق تأويل الاحلام . وكثيرا ماكانت نبوءاته تتحقق ، مما أذاع صيته . وقد حدث — ذات مرة — ان لجأت اليه نساء (أرجوس) يستطلعن الغيب فى مسألة هامة ، فوفق فى ارضائهن الى درجة جعلتهن يشركنه حكم البلاد . وما لبث الملك الاصلى «تالاوس» أن قتل ، بأيدى صنائع «امفيراوس»، ان لم يكن بيديه . **وكادت ان تنشب حرب أهلية — من جراء ذلك — لولا أن رؤى أن يتزوج الرجل من ابنة الملك القتيل — وكانت تدعى « اريفيلى » — كتعويض لما حدث ، واصلاح للأمر . وقد حاولت الفتاة أن ترفض فى البداية ، ولكنها لم تلبث أن قبلت . كما تولى اخوها « ادرا ستوس » مكان أبيه من الحكم .**

وسرعان ما أسدل ستار النسيان على الماضى . وأنجبت « أريفيلى » لزوجها طفلين ، اطلق عليهما اسمى « ألكميون » و « انفيلوكس » ، اللذين أخذا يشتدان تعلقا بأبيهما كلما تقدما فى مدارج السن .

وكانت (ارجوس) فى تحالف مع (طيبة) . فلما قدر لهذه أن تتعرض لحرب ، بات على « امفياراوس » أن يتولى قيادة الجيش الذى رؤى ارساله الى (طيبة)

الارض تبتلع العراف الملك

• **وشاء** « امفياراوس » أن يستطلع الغيب — قبل انطلاقه



لوحة من رسم ((ماتانيا)) تمثل اغراء ((اريفيلى)) بالقلادة

الى الحرب بما كان يملك من مواهب فى هذا المضمار . وقد تبين انه لن يعود من القتال ، بل كان مكتوبا له أن يلقى حتفه فى الحرب . ومن ثم ، فان الحرص على الحياة جعله يفر من الواجب ، ويختفى من (آرجوس) ، فلم يقدر لاحد ان يكتشف مخبأه . وتعرضت « اريفيلى » لالوان من الضغط ، فى سبيل حملها على ان تشى بمخبأ زوجها . وحاول القوم أن

يذكوا فى نفسها جذوة الحقد على قاتل ابيها ، بعد أن خمدت ، وراحوا يوسوسون اليها بالرغبة فى الثأر للاب القتيل . ثم حرصوا ـ فى الوقت ذاته ـ على أن يعبثوا بغرورها ، وأن يوقظوا نزوات الانوثة فى نفسها ، فعرضوا عليها قلادة رائعة ، نادرة المثال ، فى مقابل الوشاية بزوجها

وقدر للغرور ـ وهو أخطر عيوب الانثى ـ أن يحسم الموقف أخيرا ، فأفضت « اريفيلى » بسر زوجها . وهكذا فوجىء « امفياراوس » ـ فى مخبأه ـ بالقوم الذين كان هاربا منهم . واقتيد الى (آرجوس) . **وخير بين الموت والسير الى الحرب .. ولما كانت الحالان سواء ، فقد آثر أن يموت بطلا ، وسار الى الميدان . على أنه علم بغدر زوجته به ، قبل أن ينطلق ، فحمل ابنه « الكميون » على أن يقسم له بأن ينبذ كل اعتبار ، وان ينتقم له من أمه بنفسه**

وظلت الامور سائرة على ما كان « امفياراوس » يشتهى ، لفترة من الزمن . الى ان حدث ـ ذات يوم ـ ان كان القائد وأعوانه يجلسون الى المائدة ، فى ميدان القتال ، واذا بطائر جارح يهبط من السماء ، فيختطف حربة من الحراب التى كانت ملقاة فى أحد أركان الخيمة ، ثم يحلق بها عاليا ، ويسقطها وسنها نحو الارض ، بحيث انغرست فى وضع رأسى عند وقوعها .. وكانت هذه اشارة نحس لصاحب الحربة !

وشاءت المصادفة أن يكون « امفياراوس » هو صاحب الحربة !.. وقد أحاق به النحس سراعا . فبينما كان يزحف فى عربته ، أثناء معركة حامية الوطيس ـ فى اليوم التالى ـ اذا بضجة رهيبة تنبعث فجأة ، وعلى غير ارتقاب ، وكأنما انهار جبل جليدى هائل .. وهبت أمام العربة الملكية سحابة كثيفة من الغبار ، ثم انشقت الارض أمام الخيل .. وان هى الا لحظة ، حتى كانت الجياد والعربة والسائق والقائد الملكى ،

قد ترديوا في هوة .. وتحققت نبوءة « امفياراوس » !

الاله الذى تحولت حبيبته الى شجرة

• **ولعل** أشهر معبد للنبوءات – فى تاريخ الاغريق – هو معبد « دلفى » ، ألذى كان يدعى قديما معبد « ابولو بايثو »، ولهذا كانت العرافة التى تجيب عن الاستشارات ، تسمى « بايثونيس » .. وقد كان هذا المعبد يقوم فى وسط مدينة (دلفى) ، وكان من نتائج الاقبال عليه ، أن ازدادت ثروة المدينة باطراد .

وقد امتاز معبد (دلفى) – عن بقية المعابد الشبيهة – بأنه اكتسب شهرة عالمية فى العصور القديمة ، فكان مقصد الراغبين فى معرفة الغيب ، من سائر أنحاء العالم القديم . ولم يكن مظهره يختلف عن مظاهر المعابد الاخرى ، ولكن داخله هو الذى كان ذا طابع مهيب ، غير مألوف . **ففى الطرف الاقصى من قاعة القرابين ، كان ثمة تمثال ضخم – من الذهب الخالص – للاله « أبولو » .. الذى كان من الابطال ورفعه « جوبيتر » الى مرتبة الالهة ، لانه قتل أفعى هائلة تدعى « بايثون » . ومن هذا الاسم اشتقت الكلمات التى تعنى « أفعى » فى بعض اللغات الاوربية .**

وأمام التمثال ، كانت ثمة محرقة كبيرة ، تغذى بالوقود ليل نهار ، كما كانت أوراق شجر الغار تحرق فى مباخر على حوامل ذات ثلاث قوائم . وذلك لان شجر الغار كان أحب أنواع الشجر الى الاله « ابولو » . فان « دافنى » حبيبته ، تحولت الى شجرة غار ، لتهرب من محاولاته حين جمح به الهوى !

وكان التمثال يحاط بثلاثة جدران تزدان أبدا بأكاليل الغار ، وقد تخللتها أرفف مثقلة بالكنوز والنفائس التي كانت

قيمتها تفوق الخيال ، وكان كل من رآها يقف جامدا مذهولا !

عذراء في الخمسين من عمرها

• **وكانت** النبوءات لاتصدر في المعبد ـ في أوائل عهده ـ سوى مرة واحدة في العام ، كما أنه لم تكن ثمة سوى عرافة « بايثونيس » واحدة تتولى ترجمة هذه النبوءات . ولم تكن تختار لهذه المهمة سوى أجمل صبايا (دلفى) ، وكانت عفتهن وطهرهن من أهم الامور التى تحاط بسياج متين من الرعاية والصون . ومع ذلك ، فقد قدر لاحدى هؤلاء العذارى أن تستسلم لشاب جميل جرىء ـ من أبناء (تساليا) ـ يدعى « ايخيثيراتس » ، فأسفرت المغامرة عن فضيحة منكرة ، أدت الى تغيير قواعد اختيار العرافات . ومن ذلك الحين ، لم تعد سن « البايثونيس » تقل عن خمسين عاما ، وان كان لابد لها من أن ترتدى ثياب العذارى .

وكان يتبع « البايثونيس » عدد من الرسل ، يترجمون أقوالها ورموزها الى كلمات عادية ، كما كان ثمة عدد من الشعراء ، يتلقون هذه الكلمات فينظمونها شعرا . وكثيرا ما كانت هذه الاشعار لا تليق بمقام « ابولو » ولكن أهم ماكان يتطلب فيها ، هو أن تصاغ بحيث تكون غامضة ، مبهمة ، تحتمل عدة تأويلات !

وكانت شؤون المعبد تعهد الى عدد كبير من الاشخاص الذين كانوا يقومون بدور مهم . اذ أنهم كانوا يقومون بارشاد زائرى المعبد ـ من طلاب النبوءات ـ وبمرافقتهم فى جولات فى أرجاء المعبد ، وبملازمتهم خلال الايام العديدة التى كانت « البايثونيس » تقضيها فى التطهر والصيام ، استعدادا لاداء مهمتها الخطيرة . . وفى خلال هذه الايام ، يستدرج المرشدون

والادلاء زوار المعبد الى الحديث عن أنفسهم والظروف المحيطة بهم ، والاسباب التى ساقتهم الى (دلفى) . فاذا لمسرا من بعض الزائرين تكتما ، وجهوا اهتماما الى خدمهم ، ليعرفوا أسرارهم ، ثم تنقل هـذه المعلومات جميعا الى الرسل ، ليستعينوا بها على توشية اجابتهم بذكر بعض الامور الخاصة ، المتعلقة بطالب النبوءة والتى كان يستبعد أن يكونوا على علم بها .. وبذلك يوقعون فى روعه ان الرسالة التى كانوا يبلغونه اياها ، مستوحاة من مصادر مقدسة !

الاله ((جوبيتر)) يحدد منتصف الارض

• **وكانت** الاسئلة توجه شفويا أحيانا ، كما كانت تكتب على ألواح فى أحيان أخرى . فاذا ماتمت الطقوس والاجراءات الاولية ، وتأهبت العرافة لاداء مهمتها ، وزعت أغصان الغار على كل المشتركين فى العملية ، ثم يسير الجميع فى موكب الى داخل المعبد ، فتتقدم العرافة ــ يحف بها الرسل ــ حتى اذا وصلوا أمام المحرقة أحاطوا بها على شكل نصف دائرة .

ولابد لنا ــ قبل المضى فى شرح ما كان يجرى ــ من ان نلم المامة سريعة ، بما جرى قبل انشاء معبد ((أبولو)) .

والواقع أن التاريخ لايضم ما يحدد مبدأ قيام هذا المعبد . وكل ما يعرف عنه ، هو أنه كان موجـودا قبل حـروب (طروادة) . وهناك أسطورة عن منشأه ، ملخصها أن الاله ((جوبيتر)) أراد أن يعرف البقعة التى تعتبر مركز الارض ، اى نقطة الوسط على سطحها . فما كان منه الا أن ارسل نسرين ، يطير كل منهما فى اتجاه مضـاد لاتجاه الآخر .. فانطلق احدهما شرقا ، والآخر غربا ، على أن يلف كل منهما حول الارض دورة كاملة ، اذا التقيا بعدها ، كان عليهما أن يقفا فى نقطة الملتقى .

ونفذ النسران رغبة الاله ، فكانت النقطة التى استقرا عندها – بعد أن قام كل منهما بدورته – هى جبل (بارناسوس) ، فى عين البقعة التى أقيم عليها المعبد فيما بعد . وهذا هو السر فى أن ثمة نسرين ، منشورى الأجنحة ، كانا يتدليان من سقف المعبد .

وكان الرعاة المنتشرون فى جبل (بارناسوس) – قبل أن يدب اليه العمران – قد لاحظوا أن ثمة بقعة معينة ، كانت أغنامهم تصاب اذا ما اقتربت منها بتشنجات واختلاجات ، كان الذين يشهدونها يعزونها الى قوى علوية . ثم اكتشفت فجوة فى الارض ، يتصاعد منها بخار غريب ، يبدو انه كان شبيها بذلك الغاز الذى يتصاعد من « كهف الكلب » الذى لايزال موجودا على مقربة من (نابولى) فى ايطاليا .. وهو غاز سام يتصاعد من باطن الارض .

والظاهر ان الغاز الذى كان يتصاعد من فجوة جبل (بارناسوس) ، كان ذا تأثير على عقل وأعصاب كل من يشمه .. وحول هذه الفجوة ، أقيم المعبد ، وفوق الفجوة بالذات ، أقيمت الركيزة – وهى مقعد ذو ثلاث قوائم – التى كانت العرافة تجلس عليها .

الكاهنة فى غيبوبة الوحى !

• **بعد** هذه الالمامة ، نعود الى استئناف الحديث عن الطقوس التى كانت تجرى فى المعبد .

كانت « البايثونيس » تعتلى الركيزة ، وتستوى جالسة على جلد الافعى التى ورد فى الاساطير أن « ابولو » قتلها . وبعد برهة ، يبدأ جسم العرافة فى الاختلاج ، وترتعش وكأنها تعانى خوفا رهيبا ، ثم يستولى عليها ذهول – أو شبه غيبوبة – تروح خلالها تهذى وتطلق صيحات غير مفهومة ، وبمضى

الوقت ، يستحيل هذا الهذيان الى زفرات وانين ، وكأن العرافة تتعرض لآلام لاقبل لها باحتمالها .

وفى تلك الاثناء ، يكون الرسل منهمكين فى تسجيل علامات ورموز على ألواح يحملونها ، ويستمر هذا المشهد الى أن ترى العرافة أن لا قدرة لها على مواصلته ، أو الى أن تخور قواها ، فتحمل من مجلسها وهى فاقدة الرشد تقريبا ، وتودع فى صومعة خاصة ، حيث تستعيد وعيها وانتعاشها على مهل . وكثيرا ما كانت الامور تطور بحيث تفقد « البايثونيس » حياتها ، فلا يتسنى انقاذها .

وبينما تكون العرافة فى صومعتها أو فى طريقها الى القبر — يعكف الرسل على حل معميات الرموز والعلامات التى يكونون قد سجلوها على ألواحهم . ثم يضيفون اليها مايرونه مناسبا من معلومات أفضى اليهم بها الادلاء والمرشدون ، عما استطاعوا أن يصلوا اليه من الشؤون الخاصة بطالب النبوءة . ويصوغون كل هذا فى شكل نبوءة ملائمة ، يعهدون بها الى الشعراء ، كى ينظموها شعرا .

فاذا تم ذلك ، أعلن طالب النبوءة ، بالجواب عما سأل .

الاسكندر الاكبر .. يبحث عن الغيب

• وفى التاريخ نبوءة واحدة ، صدرت فى معبد (دلفى) دون كل هذه الاجراءات والطقوس ..

ففى زمن الاسكندر الاكبر — المقدونى — كانت النبوءات لاتصدر عن المعبد الا مرة فى كل شهر . وقد حدث ان كان الاسكندر يتأهب لاحدى غزواته ، فرأى أن يستطلع مصيرها ، قبل أن ينطلق ، وسعى الى المعبد .

والظاهر انه وصل اليه فى غير الموعد المحدد للنبوءات ، فما ان دخل المعبد ، حتى استدعى « البايثونيس » اليه ، وسألها أن تستطلع له رأى الآلهة فى رحلته . ولكنها أنبأته بأن



الاسكندر والعرافة
(من رسم ماتانيا)

اجابة مطلبه مستحيلة ، وان عليه أن ينتظر الى أن يحين الموعد

ولكن الاسكندر لم يكن يعترف بمستحيل . وبنفس السرعة والحزم اللذين اعتاد أن يقرر بهما خططه ، أمسك بذراع العرافة ، وجرها فى قوة - لا قبل لها بمقاومتها - الى الركيزة التى اعتادت أن تعتليها لتتلقى « الوحى » ! .. وحاولت العرافة أن تقنعه - فى تلك الاثناء - بأن الامر ليس من شأن البشر ، ولكنها ارادة الآلهة ، فليس لاحد أن يمارى فيها . ولكن الاسكندر لم يحفل بها ، وظل يجرها الى أن بلغ بها الركيزة .

ولم تجد الكاهنة حيلة ازاء الامر الواقع ، فلما وصلت الى الركيزة ، التفتت الى الاسكندر ، المحارب ، شبيه الاله - كما كان يوصف - وقالت له : **« ليس بوسع انسان ان يقاومك ! »**

واستبشر الاسكندر بهذه العبارة - التى يحتمل أن تكون العرافة قد أرادت بها لوما وعتابا - فأفلت ذراع المرأة ، وتركها حيث كانت ، وأسرع يغادر المعبد مهرعا ، حتى اذا بلغ بابه ، التفت فرأى المرأة تقف مشدوهة ، وهى تنظر اليه فى دهشة وعجب من أمره ، فصاح بها : **« لا بأس .. لقد كان هذا هو كل ما أردت أن أسمعه منك ! »**



من خفايا النفوس

الخوف!

تجربة من صميم الواقع، عاشتها وكتبتها...
الصحفية الأمريكية: لوسى فريمان

تلخيص الدكتور نظمى لوقا

تجارب الماضى .. وراء انفعالاتنا وعللنا

• مشكلة الكثيرين من أبناء عصرنا انهم يعيشون حياة موزعة ، زدوجة ، بعضها ظاهر ، واضح ، مفهوم .. وبعضها الاخر غامض ، سنو ، لا تعرف له أسباب ، ولا يسبر له غور ، ولا تتضح له أهداف! والواقع أن الحياة أنعمت علينا منذ مولدنا بحس وبصيرة سليمين، يد ان الطفولة كثيرا ما تتعثر فى طريقها بالاشواك والاحجار ، فاذا شقاء يترك فى النفس طابعه الاليم ، حتى اذا اندملت الجروح لقديمة ، بقيت آثارها غائرة فى الداخل .. فى الاعماق البعيدة عن لاعين .. ولكن حبنا للحياة ولانفسنا ، يدفعنا الى التغاضى عن كل ا يثير الالم ، فلا نتذكر بقدر الامكان سوى كل ما هو بهيج سار . ما التجارب المؤلمة ، فاننا نسمح للنسيان بأن يجر عليها ذيوله . غير نه لا يعدمها اعداما تاما ، وانما هو يخفيها عن وعينا ، ويحنطها ، تظل محفوظة ، تتربص الفرصة السانحة لكى تطفو بآلامها القديمة لى سطح الوعى .. اما سافرة بوجهها الحقيقى ، واما متنكرة فى سورة رمزية !

وكتاب « لوسى فريمان » تجربة شخصية لها .. فهى قد عانت لتواءات نفسية تمثلت لها على صورة مخاوف وهمية قاسية ، لسدت حياتها الوجدانية ، ثم أسقمت بدنها ، فاصطلحت عليها علل العضوية التى أعيت نطس الاطباء ، الى أن كشف التحليل لنفسى عن حقيقة مخاوفها وأسبابها ، فتم لها الشفاء ..

الطب يعلن فشله ..

• **فشل** الطب فى محو متاعبى وآلامى الفظيعة . فقد ظللت سنوات أتنقل من طبيب الى طبيب ، بغير طائل :

— نامى جيدا وكلى بشهية !

— **ولكن شكواى هى بالضبط أننى لا أستطيع النوم ولا الاكل ...**

— هاك أقراص منومة !

— **وكيف أعالج الطعام ؟ .. ان معدتى تنبذ كل لقمة أبتلعها !**

— خذى هذه الحبوب قبل الاكل !

— **وماذا عن الصداع الذى يحطم الدماغ ؟**

ـ هذه البرشامات ستنفعك ..

ولكن الحبوب والاقراص والبرشام بكافة انواعها،لم تجدني نفعا ، بل انها زادت آلامى .. وقيل لى ان الحرب هى التى كانت تتلف أعصابى ، فيجب أن أستريح من عملى الصحفى بضعة أسابيع .. ولكن حالى لم تتحسن ، عندما ظفرت باجازتى ، بعد أن وضعت الحرب أوزارها .. فكان لابد لى من تغيير طريقى والا هلكت !

وكان الطريق الجديد ـ الذى اتبعته ـ هو التحليل النفسى .. فقد طرقت باب التحليل بعد أن أصبحت عملية التنفس عندى مشقة مستمرة ، لم يفلح الاخصائيون فى تخفيفها بالجراحات والغسيل .. وبعد أن أصبحت أنواع المغص والغثيان عذابا ملازما .

المريضة الاولى لطبيب نفسانى

• **وكنت** المريضة الاولى للطبيب النفسانى ، بعد تسريحه من خدمة الجيش فى أعقاب الحرب .. وذهبت الى داره وأنا اقاوم رغبتى فى النكوص ، حتى لقد أقتضانى ضغط زر الجرس المثبت على بابه جهدا عنيفا . واذا به يفتح لى الباب بنفسه ، ويتجه الى المدفأة ، فيجلس فى مقعده المريح ، ويتركنى أختار لنفسى الجلسة التى تحلو لى ، فوق الاريكة الوثيرة التى كنت أعلم أن المحللين يرقدون مرضاهم فوقها .. فلم يدعنى للرقاد ، وقد حمدت له ـ فى نفسى ـ هذا التصرف

وانتظرت أن يتناول ورقة وقلما ، ثم يبدأ الاستجواب . ولكنه لم يفعل شيئا من ذلك ، بل جلس ينتظر ان اتكلم انا كما يحلو لى ، فاقول ما اريد ، وأمسك ما لا أريد .. وفوق هذا كله ، فقد اكتشفت انه لم يكن يستخدم المرضات اطلاقا، فتنفست الصعداء، لان منظر المرضات وحده كاف لترويعى !

وأخيرا سألني عما كنت أفكر فيه ، فقلت له :

ـ أفكر فى سخافة ما أنا مقدمة عليه . فما أسخف أن يتحدث المرء عن نفسه . ونحن الصحفيين نسخر من الكاتب الذى يبدأ كل مقالاته بكلمة « أنا » ، فليس « أنا » هو المهم ، وانما المهم هو المجموع .. مجموع الناس .

ـ بل ينبغى أن يهتم كل انسان بنفسه أولا . والذين يرفضون التفكير فى أنفسهم بوضوح ، تفكيرا واقعيا ، لا يستطيعون أن يفهموا أنفسهم ، ولا سواهم كذلك .. **فهل أمر نفسك لا يعنيك حقا ؟**

ـ وما أهمية هذا ؟

ـ أهميته هى أنك اذا لم تحبى نفسك ، فلن تستطيعى أن أن تحبى سواك !

ـ وكيف أحب نفسى وهى حافلة بالاغلاط والمسوخ ...

وتوالت الاسئلة عن هذه المسوخ ، وعن طفولتى ، وكيف أننى كنت فى طفولتى الفتاة الوحيدة المشتركة فى فريق « البيسبول » ، وكيف كان الغلمان يعتبروننى « غلاما » مثلهم ، فكان هذا يسرنى .. وكيف كنت ألعب كرة القدم كذلك ، وأخاشن اللاعبين ، الى أن شببت عن الطوق .

هل كانت أمى تكرهنى ؟

• **وكانت** ذكريات اللعب الغلمانى هذه هى أول ما طفا فوق تيار الذاكرة من صور طفولتى . ثم أخبرت المحلل ـ وقد أصبحت أدعوه باسمه المجرد « جون » ـ أن والدى أستأجر لى معلمة عانسا لتلقننى معلومات السنة التحضيرية ، ففرضت هذه المعلمة على نظاما صارما للاستذكار وتحسين الخط .. حتى اذا كانت السنة التالية ، أرسلنى والدى الى مدرسة خاصة تقدمية ، كان مقرها ـ فى الاصل ـ منزلا خاصا لبعض الثراة ، فى أرقى ضاحية بالمدينة

وعلى حين غرة ، أنبثقت فى ذاكرتى حادثة ظلت منسية



نيفا وعشرين سنة : فقد رأيت نفسى واقفة وحدى فى الشارع الكبير ، خارج تلك المدرسة .. ورياح شهر يناير المثلوجة تهب من جهة البحر ، وأنا مسمرة فى مكانى أنتظر أن تمر بى والدتى - على عادتها كل يوم - لتأخذنى فى سيارتها للغداء . ومضى وقت طويل ، احتقن خلاله وجهى من شدة البرد ، الى أن مرت بى احدى المدرسات ، فسألتنى عن سر وقفتى هكذا فى الشارع ، فقلت لها وأسنانى تصطك من البرد : ((لقد نسيتنى أمى .. !))

وأخذتنى المعلمة الى داخل المدرسة . وهناك أتضح لها أن والدتى خاطبت الادارة بالتليفون ، طالبة أن أتناول غدائى هناك ، لان عذرا قاهرا كان يمنعها من الحضور لاخذى .. بيد أن عاملة التليفون أهملت ابلاغى هذه الرسالة . وقد أعربت ادارة المدرسة عن أسفها ، بأن قدمت لى وجبة غداء مضاعفة فى ذلك اليوم . ولكن هذا كله لم يمح عن قلبى حرقة الالم . وظل راسخا فى نفسى أن أمى قد تخلت عنى ، وانها كانت تفضل شقيقى وشقيقتى دونى ، فما كانت لتترك أحدهما واقفا وحده فى الطريق - كما وقفت - مهما تكن الاسباب !

ومن الغريب أن هذه الذكرى المنسية أثارت غضبى ، حين عاودتنى وأنا أتحدث الى الطبيب ، فشعرت بتلك الثورة القديمة ضد أمى ، ووجدتنى أقول لجون :

- لماذا كانت تكرهنى ؟ ماذا فعلت كى تكرهنى ؟

- ولكنها لم تكرهك

– كلا ! بل انها كانت تكرهنى .. وكنت أكرهها !

وتغيظت من نفسى بعد أن أفلتت هذه الكلمة ، لأن صدورها عن فتاة مهذبة لم يكن بالامر اللائق .. وانهمرت دموعى ، فحاولت أن أعتذر ، ولكنه قال :

– لابأس .. لعلك كنت تشتهين البكاء منذ سنوات ولا تستطعين اليه سبيلا !

وأخرجت منديلى لانظف أنفى ، فاذا الاعجوبة تحدث : **تلك الاعجوبة التى عجز اخصائيو الانف عن الاتيان بها ، وهى انفتاح مسالك أنفى.** فتنفست بحرية لاول مرة منذ سنوات ، وكدت أرقص طربا ، فاستغرق « جون » فى التفكير برهة طويلة ، ثم قال :

– الارجح أن رغبتك فى البكاء وانت طفلة لم تتحقق .. وربما كان ذلك عن كبرياء . وقد أدى انسداد مجارى الدمع الى انسداد المسالك التنفسية فى الانف . وسنرى ما اذا كنا سنمضى نحو الشفاء باطراد ..

واعترف هنا بأن الشفاء استمر مع تقدم التحليل .

هذه الاحلام .. ؟!

• **وذات** صباح ، خطر لى أن أقص على « جون » – أثناء وجودى معه – حلما من أحلامى .. ولم يكن ثمة غرض معين من روايته ، ولكننى كنت أعانى مشقة – فى ذلك اليوم – فى العثور على موضوع ابدأ به الحديث ، وتذكرت أن تلاميذ « فرويد » يجعلون للاحلام أهمية كبرى فى التحليل النفسى . فقلت لنفسى أن لا بأس هناك فى التنقيب بين احلام ذلك الاسبوع عن حلم أرويه لجون .

وسردت عليه حلما رأيت فيه أننا أقمنا حفلة ، وكنت أرقص حتى كل دماغى – لا قدماى فحسب – من الرقص !.. وكان الراقصون من الشبان ، على قدر ملحوظ من الوسامة .



واذا بشاب غريب طويل القامة يسير فجأة نحوى ويأخذنى من ذراعى الى الشرفة .. والحقيقة أن هـذا الشاب الغـريب كان يذكرنى بشخص نسيتـه على نحو ما ! .. وقال لى الشاب فى الشرفة :

ـ أنت لى ، وقد أتيت من بعيـد لاتزوجـك . فهـل تتزوجيننى ؟

ـ طبعا . فقـد كنت أنتظر قدومك !

وقلت فى نفسى ـ فى الحلم ـ ان ما كان يجرى يشبه الى حـد كبير قصة « سنـدريلا » ، فلا بد من أن أخبـر أمى بالامر ، وليس من شك فى أنها ستفرح لاننى وجدت شخصا يحبنى .. فأندفعت نحـو القاعة لاجدها مهجـورة مظلمة ، ففتشت البيت ، الى أن وجـدت أمى جالسـة فى الحجـرة الضيقة التى تحت سقف البيت .. وهى حجـرة مهجـورة كنت أؤمن ـ فى صغرى ـ بأنها مسكونة بالعفاريت . فلما أفضيت لها بالنبـأ وأنا متهللة ، حملقت فى وجهى بحـزن . فأستغربت مسلكها فى هذه المناسبة السعيدة .. ولـكنها لم تلبث أن قالت بأسى : « يا عزيزتى ! انه من أهل الجنوب .. ولكن تزوجيه ما دمت تريدينه على كل حال ..! » ..

فوقع منى كلام أمى موقع الاستغراب الشديد ، بيد أننى فرحت .. وأستيقظت وانا أعجب من هذا الحلم الغريب !

ولم يعلق « جون » بشىء على هذا الحلم ، بل انه انتظر أن أعلق عليه بنفسى ، فعضضت شفتى فى خجل وقلت له :

- ينبغي أن أعترف أن هذا الغريب يذكرني بمخبر صحفي شاب أعرفه . ولكنني لم أصارح نفسي يوما بمدى تأثيره في نفسي . ثم ان هذا المخبر ليس من أهل الجنوب .

- وما معنى كلمة « جنوبي » في نظرك ؟

- انني غير متعصبة اطلاقا ، فلا يعني الجنوبي شيئا خاصا عندي .

- في نظري أنا أنه يعني الرمز الى ضيق الافق ، وكراهة الزنوج ، والتعصب عموما .. ولكن خبريني : ما هي نظرة والدتك الى أهل الجنوب ؟

- لا أدري . ولكن في أستطاعتي أن أسألها وأخبرك .

- لا ضرورة لهذا .. المهم هو ما تظنين أنت أنه رأيها

- أعتقد أنها تتمثلهم أعداء الشماليين في الحرب الاهلية .

- مرحى ! هذا ما خطر ببالي .. فجنوبي في لغة أمك رمز لعدو . وهذا ما قصدته .. فكأنها أرادت أن تقول - في المنام - « مع انه عدو ، فلا مانع من أن تتزوجيه على كل حال » . والعدو هنا لا يقصد به المعنى السياسي ، وانما المعنى الجنسي .. أي أنه « رجل » .. انه « ذكر » !

- ومعنى هذا أنني أعتبر الرجل عدوا ، وأن الزواج شر لابد منه !

وهكذا ، أتضح لي - شيئا فشيئا - ما كان خافيا في أعماقي . فان تمسكي بالعمل على قدم المساواة مع الرجال ، هو محاولة للهروب من الاستسلام للعدو بالزواج ، بأن أتخفى في ثياب العدو نفسه !

وكشف لي « جون » بهذا عن مسألة زادتها ذكريات الطفولة وضوحا ، وهي خجلي - في أعماق نفسي - من أنني فتاة ، وحسرتي من أنني لم أكن غلاما . ولذلك فانني أسترجلت ، ومنعت نفسي من المصير الذي لا بد منه لكل أنثى .. الا وهو

الاستسلام للرجل !

وما أكثر من خرجت معهم من الشبان وأنا طالبة ، ثم وأنا صحفية ، بيد أننى كنت أقف دائما – فى علاقاتى معهم – عند حد القبلات .. واما عندما يبدأ اللمس ، فلا ، ثم لا !

ليس الحب هكذا .. !

• **ومع** ذكريات الطفولة ، وتقدمى فى التحليل ، بدأت أنصف والدى ، ولذلك ثرت على « جون » حين قال لى يوما : « ان بلواك هى أنك لم تتلقى من والديك منحة الحب » .

– بل أنا واثقة من أنهما أحبانى كثيرا ولم يضنا على بشىء .

– وهل كان حبهما من النوع الذى يتيح لك الحرية ؟

– لا تظننى أجهل الحب ... فقد أحببت جملة مرات .

– لا أستطيع أن أسمى ما كنت تشعرين به حبا ...

– فأى شىء هو ، اذن ؟

– انه جوع عاطفى . أما الحب الحقيقى فهو محنة . وانا أتمثل الحب اسما لا فعلا ، بالمعنى الذى يقال به ان الله محبة .. وأذكرك بتعريف الحب كما ورد على لسان القديس « بولس » وكيف انه يتحمل المشاق طويلا ، كما انه رقيق عطوف لا يقسو .. وهو مجرد من الحسد ، منزه عن التبذل والطمع . فالحب اذن ينبع من شعور الانسان بالشبع من الحياة والامتلاء بروحها ، فى حين أن الجوع العاطفى – الذى يخاله الكثيرون حبا – ينبع من الشعور بالنقص والفقر والخواء الداخلى . ولذلك نجد الحب الحقيقى لا يكافح ليقهر ويستولى ويستمتع ، ولا يطلب من المحبوب مقابلا أو مثوبة . كما أنه لا ينخدع فى ذلك المحبوب فيظنه الها أو ملاكا . **كلا بل ان المحب الصادق يرى المحبوب على حقيقته بشرا ، ويحبه كما هو ، بعيوبه وحسناته على السواء ، فلا يطالبه بشىء ، ولا**

يبتغي سوى خدمة المحبوب اغتباطا بتلك الخدمة . فلا مكان مع الحب الحقيقى الحسد والغيرة والقلق !

ـ هذا لعمرى لون من الحب جديد . فمن الذى يتحلى به ؟

ـ نحن الآن مهتمون بمن حرموا منه !

وعادت بى الذاكرة الى سنوات صباى حين كنت اخلط بين الحب وبين الشعور الحسى الذى كان يساورنى بعد القبلة الملتهبة التى أستمتع بها من الغلام الذى كنت أخرج معه للنزهة . وتذكرت مغامراتى وأنا فى المدرسة الثانوية مع الشبان ، وكيف كانت القبلة تستغرق دقائق بأكملها ، أنتشى بها وأنا أحسب أن ذلك هو أقصى ما فى الحب من متعة . أما ما وراء القبلة ، فلم يكن يعنينى مطلقا .. ولا كان يعنينى أن يتعذب الشاب من جراء تمنعى الذى كنت أتمسك به الى النهاية .. **أما الآن ، فقد بدت أمامى صورة أخرى للحب ، لم تخطر لى من قبل ، فوجدتنى أتساءل : « وكيف أصل الى هذا الحب ؟ »**

وقد أجابنى جون على هذا السؤال قائلا :

ـ ان الحب والخوف لا يجتمعان . فالطفل الذى يتلقى من والديه نعمة الحب الحقيقى ـ غير الانانى ـ تخلو حياته من المخاوف الوهمية ولا يحس الا بالمخاوف الواقعية التى يمكن تفسيرها . أما اذا شب على الخوف ، فانه سيقاوم هذا الخوف بالسلاح الطبيعى ، وهو الكراهية .. كراهية الحياة والعالم الذى يوحى اليه بالمخاوف . فالثقة هى الحليف الاكبر للحب ، والكراهية هى حليف الخوف . ومن ثم فلابد من أن تبدئى بالقضاء على سوء الظن بالناس وبالحياة ، لانه هو الذى يقضى على الثقة ويوحى بالخوف ويسبب الحقد والكراهية والقلق . فأساس الامراض العصبية كلها ـ التى تنجم عنها اختلالات جسمية ـ هو عدم النضوج العاطفى .

والمريض النفسى العصابى ـ كما أراه ـ شخص ناضج جسميا وعقليا ولكنه طفل وجدانيا !

ـ كأن المرض لا يحدث دفعة واحدة بسبب حادثة واحدة ؟

ـ كلا ، وانما هو يحدث بالتدريج ، نتيجة لتراكم مخاوف وخيبة آمال متكررة تمحو الثقة تدريجا . وأساس البلية هو تكون شعور عند الطفل ـ بالتدريج ـ بأنه غير مرغوب فيه ، أو بأنه يمكن أن يكون مرغوبا فيه أو غير مرغوب فيه لاسباب لا يمكن التكهن بها ، لانها رهن بمزاج الوالدين ، اذا كانا هوائيين يعتبران الطفل ملهاة ، فهما يقربانه اذا رغبا فى التسلية والانس به .. وهما يقصيانه عن حياتهما اذا ضاقا به أو صرفهما عنه صارف ! .. وهذا التناقض المتطرف فى سلوك الوالدين نحو الطفل ، يسبب له الارتباك ، ويشعره بأن قيمته ليست فى ذاته ، وبأن حياته ليست ملكا له ، وانما هى تابعة لوالديه .. **فاذا ما كبر ، اعتقد أن كل قيمته مرهونة بحسن قبوله عند الناس أو ضيقهم به . واذا لم يجد عند الاغراب مثل ما كان يجد عند والديه من الحفاوة ، استولت عليه التعاسة ، وأصابته العلل النفسية التى أشرنا اليها .. فيكره المجتمع ويكره نفسه ، ويعتقد ـ كما تعتقدين أنت فى أعماقك ـ انه خلق مسخا ناقصا ، وانه كان جديرا بأن يكون على غير ماهو عليه .. وكراهية الشخص لنفسه تمنعه من حب سواه من حب الحياة !**

ـ وهل تعتقد أننى أستطيع أن أبرأ من القلق والخوف والكراهية ؟

ـ بالتأكيد ، ولكن بالتدريج .. ذلك لانك عشت طويلا على عادات نفسية معينة ، ولهذا يجب أن تتذرعى بالصبر والجلد كى تغيرى هذه العادات الى النقيض . فابدئى بالثقة بنفسك ، لينتهى بك ذلك ـ مع الوقت ـ الى الثقة بالآخرين ، وبعد الثقة يأتى الحب ، حينما يتم نضوجك الوجدانى ، فتنتقلين

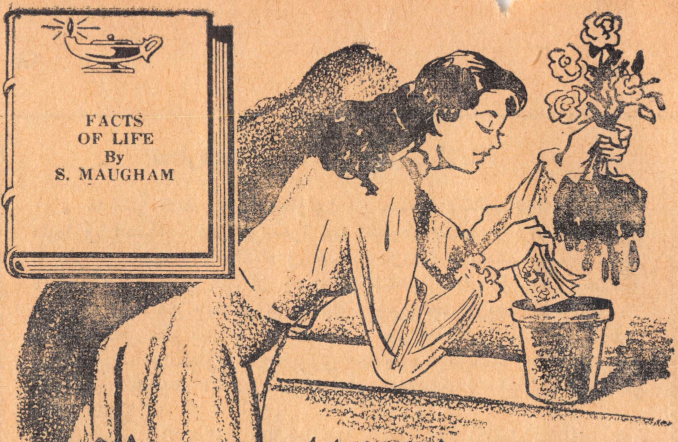
من مرحلة الشهوات الطفلية ، والتلهف على امتلاك اللعب الجميلة ، الى مرحلة الحب الكامل الذى هو بذل وفهم وتقدير وبناء !

.. نحو الخلاص !

• **هكذا** أوصلنى « جون » ، بعد أن أخرجنى من التيه ، الى الطريق البهيج المفضى الى الشفاء . ولم تلبث موجة التحسن — التى شفت مسالكى التنفسية — أن زحفت الى أمعائى ، والى رأسى .. فاختفى الغثيان والقىء وتلاشى الصداع .. وبدأت أهضم بغير حاجة الى أدوية . ونقص وزنى نقصانا ملحوظا ، بعد أن أنصرفت نفسى عن كميات « الجيلاتى » الضخمة التى كنت ألتهمها . **فقد أدركت من مراجعة ذكريات طفولتى ان اهدائى «الجيلاتى» كانت طريقة أبى المفضلة للبرهنة لى على حبه أياى . فلما كبرت وواجهت الحياة فوجدت فيها جفاء أفزعنى ، صرت أجد فى التهام « الجيلاتى » بكثرة استرجاعا صناعيا رمزيا للحنان الابوى !**

وبالمثابرة على مواجهة نفسى بصراحة ، ونقد تجارب التربية السيئة — التى منيت بها فى طفولتى — علميا ، ولدت من جديد امرأة بلا مخاوف .. ومن ثم بلا أمراض تهد الجسم وتعيى الاطباء .

وأستقبلت الحياة بجسم سليم ، لاننى عرفت كيف أستقبلها بقلب سليم .



حقائق الحياة

(مشكلة أب)

للقصصى الانجليزى العالمى الصيت

سومرست موم



تلخيص : المحرر

تجارب الآباء .. وتجارب الابناء

• ما أكثر الآباء الذين يحاولون أن يضعوا لابنائهم قواعد يسيرون عليها فى الحياة ، وان يرسموا لهم خطوط السير ، ويطالبوهم بأن لا يخرجوا عنها !.. والآباء فى هذا معذورون ، يشفع لهم حبهم لابنائهم ، وحرصهم على أن يجنبوهم المتاعب ، بأن يؤثروهم بخلاصة ما خرجوا به من جهادهم فى الحياة ، ومن تجاربهم وخبراتهم .. فليس يخطر لهم ببال ، ان الابناء ـ على حداثتهم ـ قد يصادفون من المغامرات والتجارب ، ما يزرى بما خاضه الآباء ، وما يناقض تلك القواعد والخطوط التى رسموها وهم يعتقدون ان ليس هناك ماهو أسلم منها !

هذه هى الفكرة التى عالجها هنا ، القصصى الانجليزى البارع « سومرست موم » .. فهل تراك تقره عليها ؟ .انتظر ! اقرأها اولا، ثم اصدر حكمك بعد أن تكون قد عشت فى وقائعها وملابساتها !

اعتاد « هنرى جارنيت » أن يمر فى طريق عودته من المدينة ، كل مساء ، بالنادى الذى يشترك فى عضويته ، كى يلعب « البريدج » قبل أن يمضى الى بيته ليتناول العشاء مع أسرته .

وكان هنرى شخصا مرحا لطيف المعشر ، ألف الاصدقاء أن يروه ضاحكا ، من قلب خلى ، لأوهى سبب واتفه عبارة يتفوه بها أحدهم .. لكنه بدا تلك الليلة صامتا واجما ، ترف على زاوية فمه سمة العبوس ، وينعقد حول حاجبيه وأساريره تغضن واضح !

وأراد أحدهم أن يخفف من جو التوتر الذى يسود مائدة اللعب ، بأن ينقل دفة الحديث الى موضوع كان الجميع يعلمون أنه يلذ لصديقهم هنرى أن يسهب فيه ، فسأله :

ـ كيف حال ولدك يا هنرى ؟ سمعت أنه قد أظهر تفوقا كبيرا فى الرحلة الاخيرة ..

فازدادت أسارير الاب تقطيبا ، وغامت على وجهه سحابة قاتمة وهو يجيب :

ـ كنت أتوقع له ذلك .

ـ ومتى يعود من مونت كارلو ؟

ـ لقد عاد مساء أمس .

ـ وهل استمتع بالرحلة ؟

ـ أعتقد ذلك .. وان كان قد أثبت أنه أحمق كبير !

ـ حقا ؟ .. كيف ؟

وأخذ هنرى جارنيت يروى قصته :

* * *

كان الابن الذى أشار اليه هو ابنه الوحيد . وكان فى الثامنة عشرة ، ويدعى نيقولا . وكانت الاسرة تضم عداه بنتين احداهما فى السادسة عشرة والاخرى فى الثانية عشرة . ولكن برغم أن الآباء يحبون فى العادة بناتهم أكثر من أولادهم ، وبرغم أن هنرى حاول ألا يظهر تفضيله لواحد من أولاده على الآخرين ، فان الذى لاشك فيه أنه قد اختص ابنه الذكر بالنصيب الاكبر من عاطفته !.. وكان يولى ابنتيه قدرا لا بأس به من العطف ، ويهديهما هدايا قيمة فى الاعياد ومختلف المناسبات ، ولكن « نيقولا » كان بالنسبة اليه شيئا آخر ! .. لم يكن يضن عليه بشىء ، أو يرفع عينيه عنه حيثما رآه . وما كان فى ذلك مغاليا يستحق اللوم ، فان « كولا » ــ كما شاء أبوه أن يدلله ــ كان فتى جديرا بأن يفخر به أى أب .. فهو قوى العضلات ، عريض المنكبين ، مرفوع الرأس ، وبرغم أنه لم يكن خجولا ، فلقد كان فى مسلكه وحركاته تواضع جذاب . **وفى المجتمعات كان على الدوام لطيفا ، مؤدبا ، مرحا فى هدوء .. تحس من مجرد النظر اليه أنه أمين ، صريح .. لم يسبب لوالده يوما أدنى انزعاج ، فصار محبوبا من جميع عارفيه .**

لكن ذلك لم يكن كل ما هنالك .. ففى سن الرابعة عشرة أبدى موهبة خارقة فى لعبة التنس .. فلما لمس الاب من ابنه هذا الاستعداد ، حرص على أن ينميه ويغذيه ، فلم يبلغ السادسة عشرة حتى كان قد برز فى الصفوف الاولى من اللاعبين الذين فى مثل سنه !

وفى سن الثامنة عشرة التحق نيقولا بجامعة « كمبريدج » ، فداعب خيال أبيه الامل فى أن يتمكن قبل تخرجه من تمثيل الجامعة العالمية فى تلك اللعبة . وكانت لدى الشاب كل المؤهلات التى تيسر له أن يصبح من لاعبى التنس المشهورين ، وكان أبوه قد أعد لتدريبه فى العطلة الصيفية أمهر مدربى انجلترا ، طمعا فى أن يراه يشترك مع اللاعبين الممتازين فى مباريات « ومبلدون » ، ومن يدرى .. لعله ينتخب لكى يمثل بلاده فى مباريات كأس ديفيز المشهورة !

وكان للأب أصدقاء عديدون من هواة التنس، بحكم مواظبته على حضور مباريات هذه اللعبة . وذات مساء وجد نفسه فى احدى مآدب العشاء جنبا الى جنب مع واحد منهم يدعى الكولونيل « برابازون » ، فراح يحدثه عن ابنه نيقولا وأمنيته فى اختياره ممثلا للجامعة فى لعبة التنس فى الموسم التالى .. فسأله الكولونيل على الفور :

ـ لماذا لاتدعه يذهب الى مونت كارلو للاشتراك فى دورة الربيع التى سوف تعقد هناك ؟

ـ لا أحسبه قديرا الى هذا الحد ، فهو لم يبلغ التاسعة عشرة بعد ، ولم يلتحق بكمبريدج الا فى أكتوبر الماضى .. وأعتقد أنه لا يستطيع أن يتصدى لابطال اللعبة المحترفين .

ـ انه بغير شك سيفيد خبرة عظيمة من اللعب ضد لاعبين مشهورين ، من الدرجة الاولى ، الامر الذى لم تتح له فرصته من قبل ..

ـ لكننى لا أرضى له أن يغادر كمبريدج فى منتصف الفصل

الدراسى كى يسافر فى رحلة رياضية ، فقد حرصت دائما على أن أدخل فى روعه أن التنس مجرد لعبة رياضية ويجب ألا يشغله عن دروسه !

ــ ان الرحلة يا عزيزى لن تستغرق أكثر من ثلاثة أيام ، وهى مدة يسهل تدبير أمرها .. سيما وأن اثنين من خيرة لاعبينا قد تخلفا عن الاشتراك فى الدورة ، ونحن نريد أن يكون فريقنا قويا بقدر الطاقة ، فان الالمان والامريكان سيرسلون خيرة لاعبيهم !

ــ لا فائدة من الحاحك فى هذا الصدد ، فان نيقولا ليس بارعا الى هذا الحد .. **فضلا عن انى لا أقر فكرة ارسال « غلام » فى سنه الى مونت كارلو بغير أن يصحبه من يسهر على رعايته هناك !**

ــ سوف أكون أنا هناك ، بصفتى « الكابتن غير المشترك فى اللعب » للفريق الانجليزى .. وأعدك بأن أعنى بأمره .

ــ ستكون مشاغلك كثيرة ، ثم اننى لا أميل الى تحميلك تلك المسئولية الجسيمة ، فان نيقولا لم يغترب قط .. وأصارحك بأنه لو ذهب فلن يهدأ بالى من ناحيته لحظة واحدة !

* * *

وافترق الصديقان عند هذا الحد من النقاش ، ومضى هنرى جارنيت الى بيته مبلبل الذهن بالفكرة الى حد أنه لم يستطع كتمان الامر عن زوجته :

ــ تصورى أنه يحسب نيقولا جديرا بمنازلة المحترفين !.. لقد رآه وهو يلعب مرة ، ويقول ان طريقته فى اللعب ممتازة ، ولا ينقصه سوى التدريب الكافى كى يقفز الى الصفوف الاولى !

وأدهشه انه لم يلمس من زوجته معارضة جدية للفكرة

كما كان يتوقع !.. فقد قالت له بعد حين :

ـ لا تنس أن أبننا قد بلغ الثامنة عشرة .. وهو لم يرتكب يوما حماقة من حماقات الشـباب ، وليس ثمة ما يدعو الى افتراض انه سيفعل ذلك الآن ..

ـ ولكن لا تنسى أن امامه واجباته المدرسية ، ولو سـمحنا له بالتغيب عن الكلية فى منتصف العام ، لكانت سابقة خطيرة قد يحاول تكرارها فى المستقبل !

ـ انها ثلاثة أيام فقط ، فما ضرر تغيبه خلالها ؟.. ان من العار أن نحرم الولد من فرصـــة كهذه ، وأنا واثقة من أنه سيسارع الى انتهازها اذا أخبرته ..

ـ اننى لن أخبره بالامر ، فانا لم أدخله كمبريدج لمجرد لعب التنس ! ثم انه أصغر من أن يذهب الى مونت كارلو بمفرده !

ـ تقول انه لن يستطيع أن يهزم أولئك المحترفين .. ولكن من يدرى ؟

أطلق هنرى جارنيت تنهيدة خفيفة. .اذ كان قد خطر بباله فعلا وهو منطلق بالسيارة فى طريقه الى البيت أن الحظ قد يخدم ولده ، فيفوز .. وعندئذ لن يبقى شك فى اختيـاره لتمثيل الجامعة فى مباريات ومبلدون الشـــهيرة ، ولكن .. أليست هذه مجرد أوهام وليس أكثر !

ـ لا فائدة من الالحاح يا عزيزتى .. لقد اتخـذت قرارى ولن أغيره !

* * *

آثرت مسز جارنيت ألا تمضى فى الجدل مع زوجها ، لكنها فى اليوم التالى كتبت خطابا الى ابنها تخطره بما حدث ، وتطلعه على الخطة المثلى للحصـول على موافقة أبيه ، اذا كان يرغب حقا فى انتهاز الفرصة السانحة !

وبعد يومين تلقى هنرى جارنيت رسالة من ابنه تنطق سطورها بالحماسة والانفعال .. لقد قابل استاذه المشرف على نشاطه الجامعى ، وهو من هواة التنس ، كما اتصل بسكرتير الكلية ، الذى كان يعرف الكولونيل برابازون ، فلم يجد منهما اعتراضا على تغيبه تلك الايام الثلاثة .. بل وجد منهما ، على العكس ، تشجيعا على عدم ترك الفرصة تفلت من يده !

كان الخطاب رقيقا ، لبقا .. وقد راقبت مسز جارنيت زوجها وهو يقرأه على مائدة الافطار ، فلم تزعجها التقطيبة التى ارتسمت على أساريره .. وحين فرغ من القراءة ، ألقى اليها بالرسالة قائلا :

ـ لست أفهم الداعى الذى جعلك تنبئين نيقولا بأمر تلك الدورة التى حدثتك بشأنها حديثا خاصا !

ـ أردت أن يسر حين يعلم رأى الكولونيل برابازون فيه ، **ولست أدرى لماذا لا ينقل الى الشخص غير القول السىء الذى يقوله الناس عنه ، بينما يخفى عنه نبأ ما يمتدحونه به ؟**

ـ لكنك وضعتنى فى موقف حرج ، فان أكره ما أكرهه أن أبدو فى نظر الفتى فى صورة الطاغية الذى يفسد عليه مستقبله الرياضى !

ـ أوه ، انه لن يفكر فى شىء من هذا .. وانما أقصى ما قد يدور بذهنه انك متعنت ، لكنى موقنة من أنه سيقدر الامر على وجهه الصحيح ويفهم أنك انما تفعل ما فيه خيره ، وانك تقسو عليه لمصلحته .

ـ يا الهى ..

وأحست الزوجة بميل شديد الى الضحك ، **فقد أدركت أنها ربحت المعركة ، لكنها خشيت أن يفسد ضحكها كل شىء .. فقمعت رغبتها ، وهى تقول لنفسها جذلة : ((ما أسهل أن تغرى المرأة الرجل بتنفيذ ما تريد !))**

وحفظا للمظاهر ، ثبت الزوج على موقفه ثمانى وأربعين

ســـاعة .. ثم سلم ســـلاحه ! وبعد يومين حضر نيقولا الى لندن ، على أن يسافر فى صباح اليوم التالى الى مونت كارلو ..

* * *

وفى المساء انتهز الاب فرصة انفراده بابنه بعد خروج زوجته وابنتيه من الغرفة ، فراح يسدى اليه النصح بشأن الرحلة ، وختم حديثه بالقول :

– الواقع انى لست مستريحا لذهابك الى مدينة مثل مونت كارلو بمفردك ، وخاصة فى سنك هذه .. ولكن هكذا شـــاءت الظروف ، وكل ما أرجوه أن تكون عاقلا كما عهدتك دائما . **لست أبغى أن أقسو عليك ، كما يفعل بعض الآباء الرجعيين ، لكن هناك ثلاثة أشياء أريد أن أحذرك منها بصـــفة خاصـــة : أولها القمار ، فاياك أن تقامر !.. وثانيها القروض ، فأحرص على ألا تقرض أحدا مالك .. وثالثها النســـــاء ، فابتعد عن طريقهن !.. فاذا تجنبت هذه الامور الثلاثة فلن يصيبك ضرر كبير . أذكرها جيدا ولا تنسها !**

فابتسم نيقولا ، وقال :

– حسنا يا أبى ..

– هذه نصيحتى الرئيسية لك ، فأنا أعرف منـــك بأمور الدنيا ، وصدقنى انها نصيحة لها قيمتها !

– لن أنساها .. أعدك بذلك يا أبى .

– هذا جميل .. والآن دعنا نلحق بأمك وأختيك فى الغرفة المجاورة

* * *

وكما كان متوقعا ، لم يهزم نيقولا أحدا من أبطال الرياضة المحترفين فى دورة مونت كارلو .. لكنه لم يخلف ظن أحـــد فيه ، فقد انتزع نصرا غير منتظر من يد أحد اللاعبين الاسبان ،

وحرم آخر من الفريق النمسوى من فوز كان مؤكدا !.. وفى المباريات المزدوجة أبلى بلاء حسنا ، فحظى باعجاب الناس به، وغزا بجاذبيته قلوب الجميع ! وقد اعترف له الخبراء بأن موهبته تنبىء بمستقبل مرموق .

وانتهت أيام الدورة ، وحلت الليلة الاخيرة فى مونت كارلو قبل عودته بالطائرة فى الصباح التالى الى لندن .. **فود لو يرى ألوانا من الحياة فى المدينة الجميلة التى طالما سمع بشهرتها واقبال السياح على زيارتها فى كل عام ..**

وكان بعضهم قد أقام فى هذه الليلة الاخيرة مأدبة عشاء تقليدية ، توديعا لفريق اللاعبين لمناسبة سفرهم فى الغد ، فلما انتهى العشاء ذهب الجميع الى نادى المدينة الشهير ، وذهب نيقولا معهم . كانت المرة الاولى التى يزور فيها النادى .. فألفى حجراته كلها مزدحمة برواده ، فقد كان موسم السياحة فى أوجه .

ولم يكن نيقولا قد شهد من قبل لعبة الروليت ، الا على شاشة السينما .. فتوقف عند أول مائدة من موائد اللعب مر بها أثناء جولته بأبهاء النادى ، اذ شهد جمعا غفيرا قد تكأكأ حول المائدة الخضراء ، من مختلف الفئات والجنسيات .. وأدار مراقب اللعب عجلة « الحظ » بأقصى سرعتها ، ثم قذف الى داخلها بالكرة البيضاء الصغيرة .. وبعد برهة — بدت للمتفرجين دهرا طويلا — توقفت الكرة أمام الرقم الذى يرمز الى أحد اللاعبين ، وعندئذ تقدم مراقب آخر ، وبحركة بليدة تنم عن عدم المبالاة ، أزاح « ماركات » الخاسرين وكومها كلها أمام الشخص الرابح !

ورأى نيقولا زحاما فى غرفة مجاورة ، فانضم اليه .. كان القوم يلعبون لعبة « البكاراه » المشهورة ، وسرعان ما أندمج الفتى فى غمرة المتفرجين وراح يرقب ما ارتسم على وجوههم

من علامات الانفعال وتفزز الاعصاب . وكان يحمى اللاعبين من ضغط المتفرجين الفضوليين حاجز من النحاس السـميك ، جلسوا وراءه حول مائدة مستطيلة ، كل تسـعة منهم الى جانب ، وجلس المراقب والمحاسب عند الطرف متواجهين .. وكان المبلغ المتداول على المائدة ضخما جسيما ، فجعل نيقولا ينظر الى المحاسب ذى الوجه المعبر عن شتى الانفعالات — وكان يونانيا — فرأى عينيه تذرعان المائدة فى حدة الصقر ، دون أن تنم أساريره عما يختلج فى نفسه من لهفة أو جزع أو اطمئنان!..

كان المنظر مثيرا حقا ، وخاصة بالنسبة الى نيقولا الذى نشأ فى بيئة محافظة رفيعة الخلق ، فلذ له أن يرقب كيف يجازف المرء بألف جنيه من ماله فيعلق استردادها أو ضـياعها على ورقة من أوراق اللعبة ، وكيف يستقبل نبأ الخسـارة بمثل الضحكة أو النكتة التى يستقبل بها نبأ الربح !.. ثم يستأنف اللعب كأن لم يحدث شىء .. انه مشهد مثير ، شائق للغاية !

واقترب من نيقولا أحد معارفه ، وسأله :

— هل من أنباء طيبة ؟

— اننى لم العب .

— حسنا فعلت ، انها لعبة مخيفة .. تعـال واشرب معى كأسا .

— هيا بنا ..

وفيما هما يشربان ، علم الصديق أن نيقولا يشهد اللعبـة عن كثب لاول مرة فى حياته ، وانه لم يلعبها قط .. فهتف به مستغربا :

— حقا ؟.. اذن فلابد لك أن تجرب حظك بمبلغ ضئيل قبل أن تسافر .. انه من الحمق أن تأتى الى مونت كارلو وتغادرها دون أن تداعب الحظ ولو مداعبة عابرة .. ولن يسوءك على أية حال أن تفقد مائة فرنك مثلا أو نحو ذلك ..

ـ هذا صحيح .. لولا أن والدى كان يمانع فى حضورى ، وحين قبل حذرنى من ثلاثة أشياء : أولها القمار ..

ثم افترق الرجلان بعد برهة ، فعاد نيقولا يحوم حول الموائد ، حتى انتهى الى مائدة يلعبون عليها الروليت .. فوقف لحظات يتأمل نقود الخاسرين وهى تساق بالجملة الى الرابحين . ولم يستطع أن ينكر على نفسه شعوره بأن اللعبة لذيذة ومثيرة . ان صديقه على حق ، فمن السخف أن يزور مونت كارلو ويبرحها بغير أن يجرب حظه ، ولو مرة !.. **انها سوف تكون تجربة ، والمرء فى سنه يجب أن يحصل على أكبر قسط من تجارب الحياة . وفكر فى وعده لابيه ، فتذكر أنه لم يعده بأن لا يلعب ، وانما وعده فقط بأن يذكر نصيحته .. وفرق بين الوعدين !**

وأخرج من جيبه ورقة من ذات المائة فرنك ، ووضعها فى خجل واستحياء أمام رقم ١٨ .. وقد اختاره لانه الرقم الموافق لسنه ! وطفق ينتظر توقف العجلة بقلب واجف وقد أشتد وجيبه !.. وأهتزت الكرة البيضاء الصغيرة وترنحت ، أشبه بشيطان صغير من شياطين الشر ، وتباطأت العجلة فى دورانها .. وبدت الكرة كأنها توشك أن تتوقف ، ثم دارت مرة أخرى .. ولم يصدق نيقولا عينيه حين توقفت أخيرا .. أمام رقم ١٨ !

وسيقت اليه كومة من « الماركات » ارتجفت يده وهو يتناولها .. انه مبلغ ضخم فيما يبدو ، وقد بلغ من اضطرابه أنه لم يفكر فى المراهنة على رقم فى الدورة التالية .. بل انه فى الواقع لم يكن يعتزم أن يستمر فى اللعب ، فمرة واحدة تكفى لتجربة حظه .. ودهش حين توقفت الكرة مرة ثانية أمام رقم ١٨ . ولم يكن قد راهن عليه غير شخص واحد ، كما تدل « الماركة » الوحيدة التى رآها الفتى أمام الرقم السعيد ..

وصاح به شخص من الواقفين بجواره :

ـ عجبا .. لقد ربحت مرة أخرى أيها الشاب ..!
ـ أنا ؟ .. انى لم أراهن بشىء فى هذه المرة
ـ بل راهنت ، على نفس الرقم السابق ، مادمت لم تعدل عنه صراحة .. ألا تعلم أصول اللعبة ؟

وسيقت اليه كومة أخرى من الماركات ، فدار رأسه .. وراح يحصى أرباحه فاذا هى تبلغ سبعة آلاف فرنك ! .. وتملكه شعور مبهم بالقوة والسطوة فأحس انه لابد على قدر كبير من البراعة والحصافة ! .. حقا ان هذه لهى أسهل طريقة عرفها لجمع المال .. وأشرق وجهه الوسيم بابتسامة عريضة ، والتقت عيناه الوضاءتان الجميلتان بعينى امرأة كانت واقفة الى جواره .. فابتسمت !

وقالت فى هدوء : « انك محظوظ ! »

كانت تتكلم الانجليزية ، ولكن بلهجة أجنبية ..

وأجابها : « أكاد لا أصدق عينى .. فانها أول مرة ألعب فيها ! »

ـ اذن فذلك يوضح الامر .. أقرضنى ألف فرنك اذا سمحت ، فلقد خسرت كل ما معى ، وسأرد اليك المبلغ بعد نصف ساعة .

ـ حسنا ..

وأخذت « ماركة » كبيرة حمراء من الكومة التى أمامه ، واختفت من جواره بعد أن شكرته بعبارة مقتضبة .. فغمغم الرجل الذى كان يحدثه قبلها :

ـ لن ترى وجهها مرة أخرى !

وأحس نيقولا بصدمة تباغت ذهنه .. لقد حذره أبوه صراحة من أن يقرض أحدا ، فكيف فعل ذلك ؟ ولامرأة لم يقع بصره عليها من قبل ؟ .. لكن الواقع أنه من فرط نشوته فى لحظة الربح أحس بحب مفاجىء « للجنس البشرى » كله ، بحيث لم يخطر بباله أن يرفض طلب تلك المرأة ! .. ثم انه كان

عسيرا عليه أن يصدق أن هذه « الماركة » الحمراء الصغيرة التى أخذتها يمكن أن تساوى شيئا !.. ومع ذلك ، فماذا يهمه اذا لم تعد ؟ تكفيه الستة آلاف فرنك التى تتبقى له .. وليجرب حظه مرة أخرى أو مرتين ثم يذهب لينام .

ووضع « ماركة » أمام رقم ١٦ ، الذى كان يرمز الى سن شقيقته الكبرى .. لكنه لم يربح ! فوضع أخرى أمام رقم ١٢ ، المطابق لسن أخته الصغرى ، فلم يربح أيضا !.. ماذا ؟ يبدو ان حظه قد فارقه .. وجرب عدة أرقام أخرى مختلفة .. ولكن دون جدوى !.. فاستقر رأيه على أن يلعب مرة أخرى وأخيرة .. فربح !.. لقد عوض كل خسائره وربح فوقها .. وفى نهاية ساعة ، خسر فيها وربح مرات ، وذاق خلالها من الانفعالات مالم يكن له به عهد من قبل ، ألفى نفسه يملك عددا من الماركات ينوء بحملها جيبه .. فقرر أن يذهب . ومضى الى الصراف ليقبض أرباحه ، **فذهل حين نشر هذا أمامه أوراقا قيمتها عشرون ألف فرنك !.. انه لم يملك يوما مثل هذا المبلغ الضخم** . فوضعه فى جيبه واستدار ليذهب ، حين رأى المرأة التى أقرضها الالف فرنك تعود اليه قائلة فى لهجة اعتذار :



ــ لقد بحثت عنك فى كل مكان .. حتى خشيت أن تكون ذهبت ، فعدت أبحث فى أرجاء « الكازينو » كالمحمومة ، اذ ماذا كنت تحسبنى عندئذ ؟ اليك الالف فرنك ، وأكرر شكرى لك على جميل صنعك .

احمر وجه نيقولا كالقرمز ، ونظر اليها مدهوشا .. كيف خطر له أن يسيء بها الظن ؟.. **لقد حذره أبوه من القمار ، لكنه قامر .. فربح عشرين ألف فرنك !.. وحذره من الاقراض لكنه أقرض.. واقرض مبلغا كبيرا لامرأة مجهولة ، فردت اليه المبلغ كاملا !..** ألحق أنه ليس مغفلا بالدرجة التى حسـبه عليها أبوه ، ولاشك أنه يملك حاسة هدته الى انه يستطيع أن يقرض تلك المرأة بغير أن يخشى شيئا .. وها قـد صدقت حاسته . ويبدو أن هذه الافكار التى دارت برأسه قد أظهرته بمظهر المذهول ، فلم تملك المرأة نفسها من أن تنفجر ضاحكة وتسائله :

ـ ماذا دهاك ؟

ـ اذا أردت الحقيقة فانى لم أتوقع أن أرى نقودى تعـود الى

ـ ماذا حسبتنى ؟ .. نصابة ؟

وعاد وجـه نيقولا فاصطبغ بلون القـرمز ، وهـو يجيب معتذرا :

ـ حاشا لك يا سيدتى ..

ـ هل أبدو مثل امرأة نصابة ؟

ـ كلا .. كلا ..

كانت ترتدى ثوبا أسـود بسيطا ، مزينـا بشريط مذهب حول الرقبة ، وكان القوام الذى يبـدو تحت ثوبها رشيقـا خفيفا .. أما وجهها فجميل دقيق القسمات . وأما رأسهـا فصغير أنيق ، وزينتها متقنة معتدلة ، وقد قدر نيقولا سنها بما لا يزيد عن سنه بأكثر من ثلاث أو أربع سنوات ..

وابتسمت له ابتسامة ودية وهى تقول :

ـ ان زوجى يعمل فى مراكش ، وقد جئت الى مونت كارلو

كى أقضى بضعة أسابيع ، فقد خيل اليه انى بحاجة الى تبديل الهواء

فقال نيقولا ، لانه لم يجد شيئا آخر يقوله :

ــ انى كنت أنوى الانصراف ..

ــ هكذا مبكرا ؟

ــ نعم ، فانى سأضطر الى الاستيقاظ عند الفجر ، كى أستقل الطائرة الى لندن ..

ــ هذا صحيح ، فقد انتهت دورة الالعاب اليوم ، أليس كذلك ؟ هل تعلم انى رأيتك تلعب التنس ، مرتين أو ثلاثا ؟

ــ حقا ؟ .. وما الذى لفت نظرك الى ؟

ــ ان طريقتك جميلة فى اللعب .. وقد كنت جذابا فى البنطلون القصير

لم يكن الفتى مغرورا .. لكن خاطرا مر برأسه هيأ له أن المرأة قد تكون اقترضت منه المبلغ خصيصا كى تمهد سبيل التعارف معه !

وسألته : « هل زرت ملهى نيكر بوكر ؟ »

ــ كلا ..

ــ ولكن يجب ألا تغادر مونت كارلو بغير أن تراه .. لم لا تأتى الآن لترقص قليلا ؟ .. الحق أنى أكاد أموت جوعا وأشعر بحنين الى طبق من البيض ولحم الخنزير .

ومرت بذهن نيقولا نصيحة أبيه الثالثة : أن يبتعد عن النساء ! .. لكن هذه المخلوقة العذبة ليست كسائر النساء . يكفى أن تنظر اليها كى تدرك أنها امرأة « محترمة » ! .. ان زوجها يعمل فى مصلحة الدفاع المدنى . وقد كان لنيقولا أقرباء يعملون فى الدفاع المدنى ، كانوا يحضرون الى بيت أبيه أحيانا ومعهم زوجاتهم لتناول العشاء .. حقيقة أن أولئك الزوجات كن أكبر سنا وأقل جمالا من هذه المرأة ، لكنها لاتقل عنهن وقارا ولياقة من حيث المظهر .. ولا بأس فى أن يرفه

عن نفسه قليلا بعد أن ربح العشرين ألف فرنك

وقال لها الفتى : « انى أرحب بالذهاب معك ، ولكن أرجو ألا تستائى اذا لم أطل البقاء .. فقد أوصيت ادارة الفندق بايقاظى فى الساعة السابعة بالضبط »

ــ سوف تنصرف حينما يروق لك ذلك .

* * *

وسر الفتى ببرنامج السهرة فى ملهى « نيـــكر بوكر » ، وأكل مع حسنائه البيض ولحم الخنزير بشهية فائقة .. ثم تقاسما زجاجة شمبانيا ممتعة .. ورقصا بضع رقصات ، وقالت له مرافقته الجميلة انه بارع فى الرقص .. والواقع انه كان يتقن الرقص فعلا ، لكنه فى هذه الليلة كان أكثر اجادة منه فى أى مرة أخرى ، بفضل خفة حركات مراقصته ومرونتها النادرة . **وقد أسندت خدها الى خده ، وكلما التقت أعينهما كان يرى فى حدقتيها ابتسامة تدير رأسه وتجعل قلبه يكاد يقفز من صدره !** .. وغنت امرأة سمراء أغنية « تانجو » بصوت مثير فامتلأت حلقة الرقص بالمتخاصرين .

ــ هل قالت لك امرأة من قبل أنك وسيم الطلعة ؟

ــ لا أظن ..

وضحك ، وهو يهمس لنفسه : « انها قد وقعت فى هواى ! »

.. لم يكن نيقولا من البلاهة بحيث يجهل أن النساء كن يعجبن به .. وحين قالت له ذلك ضمها الى صدره ، فأغمضت عينيها وأفلتت من شفتيها تنهدة خفيفة .. لم يملك الفتى معها نفسه من القول :

ــ أحسب انه من غير اللائق أن أقبلك هنا على ملأ من الناس جميعا !

ــ ماذا تحسبهم يظنون فى اذا فعلت ! ؟

وانتصف الليل .. وفكر نيقولا فى وجوب الانصراف ، فقالت له المرأة :

ــ أنا أيضا سأنصرف .. هل لك أن توصلنى الى فندقى فى طريقك ؟

ودفع الفتى فاتورة الحساب ، وقد أدهشته ضخامتها فى البداية .. لكن ضخامة المبلغ الذى فى جيبه لم تدع دهشته تطول ، أو تدعه يعبأ بالامر . واستقلا سيارة أجرة .. فالتصقت به ، وقبلها .. الامر الذى يبدو أنه راقها !

أما هو فقد عجب فى نفسه ، لكنه أخذ يتحايل على عجبه : انها متزوجة حقا .. لكن زوجها فى مراكش ، ولا بد أنها الليلة قد وقعت فى هواه ! .. **لا بأس ، فهو وان كان أبوه قد حذره من النساء ، فانه لم يعده بشىء ، سوى أن « يتذكر » تلك النصيحة ! .. أما أن يأخذ بها أو لا يأخذ فهذا شىء آخر ، مختلف كل الاختلاف !** .. وهو لم ينس النصيحة فى الواقع ، بل انه كان فى تلك اللحظة يديرها فى رأسه . لكن الظروف تغير كل شىء . انها مخلوقة عذبة ، ومن البلاهة تفويت فرصة سانحة كهذه ، تسعى اليه على طبق !

* * *

عندما بلغا الفندق الذى تقيم هى فيه نزل معها ، ودفع أجر السيارة ثم صرف السائق .. وقال لها :

ــ سأكمل المسافة سائرا على قدمى .. فان الهواء ينعشنى من تأثير الجو الفاسد المكتوم الذى كنا فيه .

ــ اصعد معى برهة .. فانى أود أن أريك صورة ابنى الصغير .

فسألها مدهوشا :

ــ أوه ، هل لك أطفال ؟

ــ نعم ، طفل واحد جميل ..

وارتقى السلالم معها .. لم يكن يريد البتة أن يرى صورة ابنها الصغير ، لكنه تظاهر بأنه يريد . وخشي أن يكون قد ورط نفسه فى موقف حرج ، وخطر بباله أنها قد تكون عرضت عليه أن تريه الصورة كى تفهمه بطريقة لبقة أنه مخطىء فى أمانيه ! .. وتذكر أنه قد كاشفها بحقيقة سنه .. فلم يملك أن قال لنفسه : « لا بد أنها تحسبنى طفلا ! .. » وبدأ يندم على ما أنفقه عليها فى الملهى !

لكنها لم تره صورة ابنها على أية حال .. فانهما لم يدخلا الحجرة حتى استدارت نحوه ولفت ذراعيها حول رقبتــه ، وأدنت فمها من فمه .. ان امرأة لم تقبله من قبل !

وهمست له بصوت ناعم : « ياحبيبى ! » .. وعندئذ مرت بذهنه مرة أخرى نصيحة أبيه الثالثة ، فى ومضة خاطفة .. ثم نسيها بعد ذلك !

* * *

كان نيقولا من الذين توقظهم من نومهم أخف الاصوات .. فلما انقضت من الليل ساعتان أو ثلاث ، أفاق من نومه ، وظل برهة يسأل نفسه : أين هو ؟!.. لم تكن الغرفة معتمة تماما ، وكان النور فيها مازال مضاء .. وفجـأة أحس أن شخصا يتحرك فى الحجرة . وعنـدئذ تذكر ظروف مبيتـه فى هـذا الفندق ، فقد رأى صديقته الحسناء تبتعـد عن الفـراش . وكاد أن يفتح فمه ليخاطبها ، لولا أن شيئا مريبا فى حركاتهـا جعله يتـأنى .. كانت تمشى على أطراف قدميهـا ، بمنتهى الحذر ، كأنما تخشى أن توقظه .. ثم توقفت مرة أو اثنتين ، وتطلعت ناحية الفراش فى توجس .. عجبا ! .. ترى مـاذا تنوى أن تفعل ؟ .. لكنه سرعان ما عرف ، فقد اتجهت نحـو المقعد الذى علق عليه سترته ، ومرة أخرى استدارت ناحية الفراش فى قلق .. ثم انتظرت برهة ، خالها دهـرا . وكان

السكون شاملا بحيث خيل اليه انه يسمع دقات قلبه .. **وعندئذ ، بمنتهى الحذر ، ومنتهى الهدوء ، دست يدها فى جيب السترة الداخلى وأخرجت حزمة أوراق العشرين ألف فرنك التى كان فخورا ومعتزا بربحها .. ثم أعادت السترة وبقية الثياب الى الوضع الذى كانت عليه ، بكل دقة ، ولبثت فى مكانها برهة بدت بدورها للفتى زمنا طويلا ..** فقمع هو رغبة مفاجئة فى أن يقفز من الفراش ويضبطها متلبسة . وكان قمعه تلك الرغبة نتيجة أكثر من عامل من العوامل التى وجهت تفكيره : أولها التأثير الغريزى للمفاجأة ، الذى جعله يحتفظ بهدوئه بالرغم منه .. ثم شعوره بأنه فى فندق غريب ، فى بلاد أجنبية ، ولو أثار ضجة فمن يدرى ماذا تكون العاقبة ؟

ونظرت المرأة اليه .. وكانت عيناه مغمضتين تقريبا ، فيما عدا شق ضئيل يسمح له بالرؤية .. فأيقنت أنه مستغرق فى النعاس ، وقد سمعت صوت تنفسه المنتظم ، الذى حرص على أن يحاكى تنفس النائم .. وحين اطمأنت الى أن حركاتها لم توقظه ، عبرت الغرفة بحذر زائد ، متجهة نحو أصيص من أصص الازهار كان موضوعا على حافة النافذة .. ورفعت كتلة الطمى المتماسكة التى ينمو فيها النبات ، ثم دست الاوراق المالية فى القاع ! .. ياله من مخبأ سرى ! وبمثل الحذر والهدوء الذى ذهبت به ، عادت تسترق الخطى نحو الفراش .. حتى بلغته فتسللت تحت أغطيته !

وهمست بصوتها الناعم : « حبيبى ! » .. فأجابتها أنفاس الفتى المنتظمة التى تنم عن استغراقه فى النوم ! .. وعندئذ أدارت له المرأة ظهرها مطمئنة .. ولم تلبث أن راحت تغط فى النعاس !

ولكن على الرغم من أنه ظل بلا حراك ، فان أفكاره كانت تنهب رأسه نهبا : **« انها اذن لصة محتالة ، هى وابنها الصغير وزوجها الذى فى مراكش ! .. يا لى من مغفل كبير . لكنها**

تخطىء اذا ظنت أنها سوف تنجو بغنيمتها ! »

وكان الشاب قد رتب من قبل كيفية انفـاقه للمبلغ : انه سوف يشترى به سيارة خاصة ، مادام والده قد بخل عليه بها.. ولكن كيف يسترد المبلغ ؟ .. كانت أول فكرة استبعدها أن يثير ضجة وشجارا فى هذا الفندق الذى لا يعرف من أمره شيئا . ومن يدرى ، لعل للمرأة شركاء بين جدرانه .. وهو وان لم يكن يخشى مواجهة أحد فى عراك عادل ، لايستطيع أن يطمئن الى عدم الغدر به غيلة .. ثم انه لن يستطيع اثبات أن المال يخصه هو .. وقد تتهمه هى بأنه يحاول اغتصاب مالها وتقوده الى قسم البوليس !

انه حائر حقا .. ماذا يفعل ؟ .. ولم يلبث أن سمع صوت تنفسها المنتظم ، الدال على نومها ، فغاظه أن تنام هكذا بفكر مستريح ونفس مطمئنة ، بينما يقضى هو الليـلة سـاهرا فى أسوأ حال من القلق والانزعاج ! .. **وفجأة خطرت له فـكرة أعجبته الى حد أنه كاد يقفز من الفراش من فوره فى غير حيطة كى ينفذها ، لولا أن تحكم فى أعصـابه فى آخر لحظـة .. لم لايستخدم معها نفس السلاح الذى استخـدمته معـه ؟ .. نعم ، ما الذى يحول بينه وبين أن يسرق المبلغ من مخبئـه ، كما سرقته هى من سترته ؟.. انها البادئة على أية حال، وهى المعتدية على ماله الخاص !**

وبعد أن اطمأن الى انتظام تنفسـها ، همس لهـا بصـوت خافت : « حبيبتى .. ! »

لا جواب ، ولا حركة..انها أعمق ماتكون نعاسا ، وأشهاه !

وهكذا انسل من الفراش بكل بطء وحذر ، وهـو يتريث بعد كل حركة ، ويتسمع .. ووقف برهة ساكنا ، ينظر اليها ليسـتوثق من أنه لم يزعجهـا . لـكن تنفسـها كان مايزال منتظما . وأثناء الفترة التى وقفها درس أوضـاع الـكراسى وقطع الاثاث قطعة قطعة ، كى لا يصطدم بقطعة منها وهـو



يعبر الغرفة فيحدث صوتا أو ضجيجا ..

ومشى بضع خطوات ، ثم انتظر لحظات .. ومشى خطوات أخرى ، بقدمين خفيفتين وحذر شديد ، حتى لقد استغرق منه الوصول الى النافذة خمس دقائق كاملة ! .. وهناك لبث وقتا يترقب .. وفجأة ، سمع صرير السرير الذى تنام عليه غريمته ، فسقط قلبه .. لكن النائمة انما كانت تتقلب فى نومها ! .. وأجبر نفسه على أن يعد الارقام من واحد الى مائة ، كى لايتعجل فيفسد كل مافات .. انها فى أشهى نعاس . وعندئذ ، وبأقصى مايستطيع من احتياط ، أمسك النبات من سيقانه ورفعه برفق خارج الاناء ، ثم دس يده الاخرى فى القاع ، فوثب قلبه فى صدره **وتضاعفت نبضاته وهو يلمس بأصابعه أوراق النقد ، ثم يقفل عليها يده ، ويسحبها فى حذر ! .. وحين تم له ذلك أعاد النبات الى مكانه وسوى حافة الطمى بأصابعه .. وخلال ذلك كله كان يرقب باحدى عينيه المرأة النائمة فى فراشها ، فلم يرها تتحرك أو تتقلب .. وبعد لحظة انتظار مشى متلصصا نحو المقعد الذى علقت عليه سترته ، فوضع النقود فى موضعها من جيبه .. ثم شرع فى ارتداء ثيابه !**

واستغرق منه ذلك أكثر من ربع ساعة ، فقد حرص على عدم احداث أدنى صوت .. وشكر المصادفة التى جعلته يرتدى مع سترة السهرة قميصا عاديا ناعما بدلا من قميص السهرة المنشى الذى يحدث قرقعة أثناء لبسه !

ووجد صعوبة فى عقد رباط رقبته بغير الاستعانة بمرآة ، لكنه قال لنفسه ان الامر لن يهمه كثيرا اذا لم يحسن عقد الرباط .. وأحس بشىء من الانشراح . لقد كان الحادث تسلية لا بأس بها ، لاسيما بعد أن أنتهى الى هذه النهاية الحسنة ..

أخيرا فرغ من ارتداء ملابسه ، فيما عدا حذاءيه اللذين تناولهما فى يده كى يضعهما فى قدميه خارج الغرفة .. ولم يبق أمامه غير أن يعبر الحجرة حتى يبلغ الباب .. وبلغه فى غير ضجة ، لكن الباب يجب أن يفتح .. وأدار المفتاح فى القفل بأقصى ما استطاع من بطء ونعومة .. لكنه برغم ذلك أحدث صوتا !

ـ من هناك ؟

قفزت المرأة فجأة جالسة فى فراشها .. فوثب قلب نيقولا الى حلقه ، وبذل مجهودا كبيرا كى يسيطر على أعصابه وهو يجيبها :

ـ لا أحد غيرى .. الساعة قد بلغت السادسة ، وعلى أن أذهب . وقد حاولت ألا أوقظك ..

ـ اوه ، لقد نسيت الامر كله ..

وغاصت فى فراشها من جديد ، فقال الفتى :

ـ أما وقد صحوت ، فلا بأس فى أن أرتدى حذاءى هنا .

وجلس على حافة الفراش ، ووضعهما فى قدميه ، بقلب واجف ..

ـ لا تحدث جلبة أثناء سيرك فى الممر ، فان صاحب الفندق لا يحب ذلك . أوه ، لكم يغلبنى النعاس !

ـ يمكنك أن تستأنفى النوم بعد قليل ..

ـ هات قبلة قبل أن تذهب ..

وانحنى فقبلها ..

ـ انك فتى ظريف ، وعاشق رائع .. رحلة سعيدة !

* * *

لم يشعر نيقولا بطمأنينة النجاة الا حين بلغ الشارع . كان الفجر قد بزغ ، والسماء صافية من الغيوم ، و « اليخوت » وزوارق الصيد رابضة فى الميناء فوق المياه الساكنة .. وعلى الارصفة كان الصيادون يتخذون أهبتهم لعملهم اليومى .

وكانت الشوارع خالية من المارة ، فاستنشق الفتى أنفاسا من نسيم الصباح العذب المنعش ، أحس معها بأنه متنبه منشرح .. فمضى خفيفا منتصب الظهر يصعد التل المواجه للكازينو ، وسط الحدائق الجميلة التى انتشرت فيها الازهار فبدت فى صفاء جو ذلك الصباح ، مبللة بالندى ، ملتمعة بالقطر .. حتى وصل الى الفندق الذى يقطنه وقد أشرق النهار وبدأت حركة الخدم والسقاة ، وانهمك الحراس ـ الذين التفعوا بالشيلان حول رقابهم و « البيريه » فوق رؤوسهم ـ فى كنس بهو الفندق بنشاط .. فقصد الشاب رأسا الى غرفته ، حيث خلع ثيابه واستمتع بحمام ساخن .. **وفيما هو راقد مسترخ فى حوض الاستحمام ، حلا له أن يستعرض أحداث الليلة المنصرمة ، ويغبط نفسه على انه لم يكن «مغفلا» كما ظن بعضهم !**

وبعد الحمام أدى تمريناته الرياضية المألوفة ثم ارتدى ثيابه وحزم أمتعته وهبط الى قاعة الطعام ليتناول افطاره . وكانت شهيته متفتحة للغاية ، فأكل مقادير لا بأس بها من البيض ولحم الخنزير والثريد والليمون الهندى والمربى ، ثم شرب ثلاثة أقداح من القهوة .. وبرغم انه كان قبل تناولها « سعيدا » ، فقد أحس بعدها بمزيد من السعادة !.. وحين

فرغ من الافطار أشعل غليونه الذى تعلم تدخينه حديثا ، ثم دفع فاتورة حساب الفنـدق واستقل السـيارة الى المطار الذى يقع فى الجهة الاخرى من (كان) .

★ ★ ★

كان الطريق حتى ضواحى « نيس » معبدا فوق التـلال ، وتحته البحر وشاطئه المتعرج ، فلم يملك نفسـه من الاعجاب بالمنظر الساحر . ثم بلغت السيارة (نيس) ، فكانت كالعهد بها فى الصباح الباكر مرحة طروبا .. وحين طرحهـا الركب وراءه سار فى طريق طويل مستقيم محـاذ للبحـر . وتذكر نيقولا ــ لغير مناسبة ــ انه قد دفع حساب الفندق من النقود التى أعطـاه أبوه اياها ، وليس من نقـوده التى ربحهـا من القمار .. وانه قد دفع حساب السهرة فى ملهى «النيكربوكر» من ورقة من ذات الالف فرنك ، وقد ردت له اللصة الحسناء الالف فرنك التى اقترضتها منه ، واذن يكون ما يزال باقيـا معه عشرون ألف فرنك كاملة !

ولذ له أن يلقى نظرة على المبلغ ، الذى تضاعفت قيمته فى نظره بعد أن كاد يفقده .. فأخرجه من جيبه وأخـذ يعـده ورقة ورقة .. **وفجأة أدرك حقيقة غريبـة : انه بدلا من أن يجد مجموع الاوراق ذات الالف فرنك عشرين ورقة ، وجدها ستا وعشرين !** .. ولم يفهم شيئـا من الامر ، فأعاد عـد الاوراق مرة ومرة .. فكانت النتيجة هى ذاتها .. لاشك فى ذلك ! .. وحار فى تفسير اللغز .. فسأل نفسـه : هل يمكن أن يـكون قـد ربـح فى الـكازينو أكثـر ممـا حسب ؟ .. ولكن ، كلا .. هذا أمر مفروغ منـه ، فانه يذكر جيـدا أن مراقب اللعبة قسم « الماركات » الى أربعـة أكوام ، كل منهـا يساوى خمسة آلاف فرنك ، وقد عدها هو بنفسه بعد ذلك !

وفجأة وضحت فى ذهنه الحقيقة : انه عندما مد يده داخل اناء الزهر تناول كل ماكان فيه من أوراق مالية ، وقد كان الاناء « خزينة » اللصة الحسناء .. واذن فهو لم يأخذ نقوده فقط ، وانما أخذ معها نقود المرأة التى ادخرتها من قبل !

واضطجع الشاب فى مقعده بالسيارة وانفجر ضاحكا . انها أفكه مغامرة حدثت له فى حياته ! وتضاعف ضحكه حين خطرت بباله هيئة المرأة حين تستيقظ من نومها بعد رحيله فتهرع الى اناء الزهر كى تشبع بصرها من الغنيمة الباردة التى ظفرت بها بفضل براعتها وسعة حيلتها .. فتجدها أثرا بعد عين، مضافا اليها غنائمها السابقة من ضحاياها العديدين!

ولم يكن فى وسع الشاب أن يفعل شيئا لاصلاح الموقف .. فلا هو يعرف اسم المرأة ، ولا اسم الفندق الذى قادته اليه .. واذن فهو لايستطيع اعادة نقودها اليها ، حتى لو أراد !

★ ★ ★

تلك كانت القصة التى رواها « هنرى جارنيت » لاصدقائه على مائدة البريدج ، فقد اعترف له ابنه بتفاصيلها فى الليلة السابقة ، بعد العشاء .

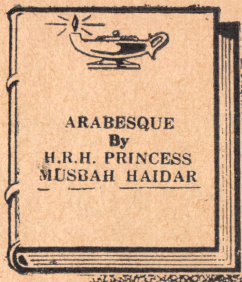
وأردف الاب الحائر : « والشيء الذى أسخطنى من الامر كله ان ابنى مسرور من نفسه لانه فعل ذلك .. ثم هل تعلمون ماذا قال لى بعد أن فرغ من سرد قصته ؟.. نظر الى بعينيه الناطقتين بالبراءة ، وقال : « أتعلم يا أبى ، اننى لاأستطيع الا أن أعتقد أن هناك خطأ ما فى النصيحة التى نصحتنى بها قبل سفرى .. فلقد قلت لى : لاتقامر .. لكننى قامرت ، فربحت ! .. وقلت لى : لاتقرض أحدا من مالك .. لكننى أقرضت ، فردت نقودى الى ! .. ثم قلت لى : ابتعد

عن النساء .. لكننى لم أبتعد ، فربحت من ذلك ستة آلاف فرنك أخرى ! »

وعند هذا انفجر أصدقاء هنرى جارنيت الثلاثة ضاحكين ، فقال لهم : « يحق لكم فعلا أن تضحكوا .. **ولكن هل تعلمون، اننى فى أسوأ موقف يمكن أن يصيب أبا من الآباء . كان ابنى يحترمنى ، وينظر الى نظرته الى من هو أرفع منه ، ويصدق ماأقول كما لو كان آيات منزلة .. أما الآن فقد قرأت فى عينيه انه ينظر الى باعتبارى كهلا مخرفا ! ..** ولا يجدى فى اقناعه قولى له : « انه ما كل مرة تسلم الجرة ! » فهو لايعتقد ان ماحدث كان مجرد حظ أو خبط عشواء .. وانما يرى أن الفضل كله راجع الى براعته .. وهذه الفكرة قد تدمره ! »

فقاطعه أحد سامعيه :

« لو كنت مكانك ياهنرى لما تكدرت أو أسفت .. **فالشاب فى اعتقادى قد ولد محظوظا .. وهذه الهبة أنفع له على طول الخط مما لو كان قد ولد ذكيا أو غنيا ! »**



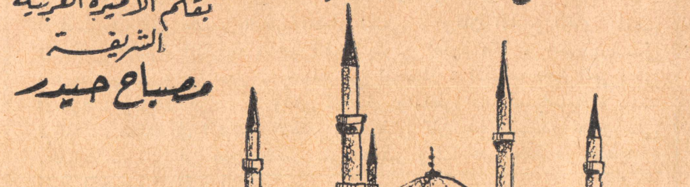


في "الحريم"!

(من ذكريات عربية)

بقلم الأميرة العربية الشريفة

مصباح حيدر



تلخيص : محمد بدر الدين خليل

المرأة و ((الحريم)) .. فى أوائل القرن العشرين

◆ ((ليس هذا الكتاب قصة طفولتى وصباى فحسب ، وانما هو سجل لفترة أصبحت فى عداد التاريخ)) .. بهذه العبارة بدأت ((الشريفة مصباح)) الكتاب الذى ضمنته ذكرياتها خلال مراحل حياتها. وهى لم تجانب الحقيقة فيما قالت ، لان الكتاب — فى الواقع — سجل لفترة من تاريخ العرب والشرق ، فيما بين الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، والربع الاول من القرن العشرين .. فترة كانت تركيا تسيطر — فى أوائلها — على الامة العربية ، فاذا غضبت على زعيم من زعمائها ، وخشيت أن يغضب له قومه اذا هى عاقبته ، عمدت الى اجتذابه الى (استانبول) ، وأغدقت عليه المناصب لتستبقيه بعيدا عن مسرح نشاطه القومى .

وقد كان والد ((الشريفة مصباح)) من هؤلاء الزعماء .. كان ابوها ((الشريف على حيدر)) من أحفاد النبى . وكان الفرع الذى ينتمى اليه من الاسرة النبوية ، هو الذى يتولى امارة مكة ، حتى أرسل محمد على — والى مصر — حملة الى الحجاز ، أقصت هذا الفرع عن الامارة ، وبوأت غيره .. ولكن الاقدار والتطورات السياسية ، دعت تركيا — ممثلة فى الصدر الاعظم ، الذى كان حفيدا لمحمد على بالذات — الى أن يعين الامير على حيدر واليا على مكة من جديد ، أثناء الحرب العالمية الاولى ..

على اننا فى الصفحات التى اقتطفناها لك هنا — ملخصة — من الكتاب ، لم نعن بالمسائل السياسية ، لانها معروفة . وانما عنينا بناحية أخرى ، قد لا تكون معروفة لدى الجيل الراهن من أبناء العروبة .. تلك هى حياة ((الحريم)) العربى والتركى — كما رأتهما ((مصباح)) وعاشت فى جوهما — وتطور مكانة المرأة الشرقية فى أوائل القرن الحالى .

ولكن ، لندعك تقرأ بنفسك هذه الذكريات الشيقة

انجليزية تتزوج عربياً من أحفاد النبى



« الآنسة دن » .. كما أصبحت فى شيخوختها

• اقتيدت الى مكتب السفير البريطانى لدى الباب العالى – فى القسطنطينية – فى أصيل أحد أيام ابريل سنة ١٩٠٢ ، فتاة انجليزية حسناء .. وتطلع السفير الى الفتاة – بعد أن أجلسها الى الجانب الآخر من مكتبه – ثم قال : « اذا أصررت على الزواج من الامير على حيدر ، فلسنا نملك أن نمنعك يا آنسة « دن » عن تنفيذ نواياك . ولكن عليك أن تدركى أنك لن تعودى من رعايا بريطانيا »

وأمسك لحظة ، ثم عاد يقول : « دعينى أذكرك يا آنسة « دن » بأنك تقدمين على خطوة بالغة الخطورة .. اننى أكن للامير احتراما عظيما ، ولكن تذكرى ان أساليب الحياة فى الشرق ليست كأساليبنا دائما ، ووفقا للتقاليد الاسلامية ، ستقضين كل أيامك فى عزلة الحريم ! »

كانت الآنسة « ايزابيل دن » ابنة خبير بريطانى بالاسلحة لدى الحكومة التركية . ولقد جلست هادئة ، متماسكة ، دون أن تبدى ترددا ، ثم قالت : **« لقد حزمت أمرى ، ولم يعد هناك مجال لقول ! »** . فلم يملك السفير سوى أن يرجو لها كل هناء . وقام مودعا العروس المنتظرة للامير العربى ، وهى تسير الى عربة كانت فى انتظارها ، ففتح لها بابها « أغا » ..

وان هو الا نصف الساعة ، حتى كانت قد اعتنقت الاسلام ، وانطلقت في طريقها الى المقر الصيفي للامير في ضيعة (شملوجه)، حيث أعد بيت خاص لاستقبالها ..

ومع أن اجراءات الزواج اتخذت في عجلة ، الا ان الامير كان قد عرف الآنسة « دن » لسنوات عديدة ، اذ انها كانت كثيرة التردد على (شملوجه) ، لتشرف على تلقين ابنه اللغة الانجليزية .. وكثيرا ماكان يسألها أن تصحبهما للنزهة على الجياد

وكان أقوى اعتراض على صداقة الامير العربي والفتاة الانجليزية ، صادرا من السلطان عبد الحميد ، اذ كان شديد الريبة في الانجليز . وقد حرم على الامير على حيدر أن يلتقي بالفتاة ، ولكن الشريف أجاب مغضبا بأن ليس لاحد أن يتدخل في شؤونه الخاصة . ثم ذهب لفوره الى الآنسة «دن» وعرض عليها الزواج ، فقبلت .. وما ان وصلت الى (شملوجه) في ذلك اليوم ، حتى عقدت مراسم الزواج ، وان هي الا دقائق حتى أصبحت الفتاة الانجليزية تدعى : « صاحبة السمو الاميرة فاطمة » ، الزوجة الثانية للامير على حيدر ، أكبر أعضاء الفرع الاكبر من أسرة الاشراف ، المنحدرين من سلالة النبي محمد

وكان زواجا لم يسبقه مثيل . فما قدر لشريف ـ لاسيما وهو الامير الشرعي لمكة ـ أن يتزوج من انجليزية ، من قبل !

أباريق تعلن مولد « شريفة » جديدة !

• في الخامس والعشرين من نوفمبر سنة ١٩٠٨ ، اجتاحت الريف التركي أعتى عاصفة ثلجية عرفها الاحياء اذ ذاك .. وكانت ثمة حركة غير عادية ، ومكتومة ، داخل دار الشريف على حيدر في (شملوجه) ، حيث كان الدفء يشع من المواقد المعدنية والمدفئات الخزفية .. اذ كانت الاميرة فاطمة تضع طفلتها الثانية، ومن أجلها تخفف الامير من التقاليد الاسلامية،

واستدعى طبيب الاسرة التركى .. وما ان وصل الطبيب ، واقتيد الى مخدع الاميرة ، حتى وجد « الدادة » الكبرى تسد الطريق فى وجهه . فقد ذعرت العجوز ـ التى كانت تسيطر على الخدم والعبيد ـ وصاحت : « لم يحدث فى تاريخ الاشراف ان قدر لرجل أن يحضر مولد طفل قط ! » .. وعندما نفدت حيلة الطبيب وصبره ، اقتحم طريقه ، ودخل الحجرة فى اللحظة المناسبة لانقاذ حياة الوالدة وحياة الطفلة

وأعلن مولد « الشريفة » الجديدة لجميع الدور المجاورة ، بأن أرسلت اليها أباريق مزخرفة ملآى بالشربات . وكانت فوهات الاباريق تغطى ـ عادة ـ بحرير وردى اذا كان المولود بنتا ، وتترك عارية اذا كان ذكرا . واحتفالا بالمناسبة ، اجتلبت الى الدار كافة فواكه الموسم ، وكافة الفواكة المجففة : من تين ، وتمر ، وزبيب ، وبندق ، وفستق ، ولوز ، وجوز .. وكانت الصحاف تعبأ ويحملها العبيد مثقلة الى « الحريم » و « السلاملك » ـ الجزء الخاص بالرجال من البيت ـ والمطابخ ، وحظائر الخيل ، والى البستانيين والخفراء .

وبعدأيام من مولد الطفلة ، كان على العم « الشريف جعفر »ـ الذى كان يلقب فى البيت بـ « الباشا » ـ أن يختار لها اسما . فقاده أخوه ـ الشريف على حيدر ـ الى غرفة الوالدة .. وأسفر الاجتماع عن اختيار اسم « مصباح » . ثم ذهب العم فتوضأ ، وعاد فانحنى على أذن الوليدة ـ التى كانت نائمة فى مهدها ـ وراح يهمس فى أذنها باسم : « مصباح » !

امرأة تفوق الرجال

• **وأرسل** نبأ مولد الطفلة الى رأس الاسرة فى مكة ، وهى الشريفة « عزة » ، التى كانت تدير أوقاف الاسرة كذلك . وعلى عكس مايجرى فى الغرب ، فان أكبر أعضاء الاسرة ـ ذكرا كان أو أنثى ـ يصبح رئيسا لها ، عند موت رئيسها .

ولكى يدير ثروتها الواسعة ، المستمدة من أراضيها العديدة ، ومن هدايا الحجاج ، فان رئيس الاسرة يتخذ من (مكة) مقرا له . وعندما يولد طفل ، يسجل فى قوائم الاسرة ، ويقدر له نصيب من الدخل السنوى لاملاك الاسرة الشاسعة فى (مكة) و (جدة) و (الطائف)

وكانت الشريفة « عزة » ـ التى لم تتزوج قط ـ شخصية عظيمة ، حكمت أقاربها بيد من حديد ملتفة بقفاز من مخمل . . وفى السنة التى تزوج فيها « على حيدر » من الانجليزية ، زارت الشريفة (استانبول) ، فدعاها السلطان عبد الحميد للنزول فى ضيافته ، فلم تتفضل بالبقاء لاكثر من يومين ، ثم انتقلت الى بيت مناسب ، قضت فيه الشتاء . ومع أن بلاد العرب كانت جزءا من الامبراطورية التركية ، الا أن أشراف مكة كانوا يعتبرون أنفسهم مخلوقات غير بقية البشر من أمثال سلاطين تركيا . وقد أراد السلطان عبد الحميد أن يعبر عن احترامه للشريفة عزة بأن ينعم عليها بوسام « الشفقة » ، وشد ما كانت دهشته اذ رفضت فى استنكار ، قائلة : « ليس لشريفة حاجة الى أمثال هذه الاشياء ! »

وكانت لها طريقة خاصة فى ابداء عدم رضائها عمن تغضبها من زوجات أولاد أخوتها وابنائهم . وقد حدث ـ ذات مرة ـ أن أثارت احدى الزوجات استياء الشريفة ، فما كان منها الا أن دعت الزوج ، وقالت له فى عظمة مهيبة : « ما أسعدك يابنى . . ها هى ذى شركسية جميلة لك ! » . والتفتت الى حسناء شابة ، كانت تقف لدى الباب تجللها حمرة الخفر ، وأشارت اليها قائلة : « **تعالى . . ها هو ذا زوجك المقبل ، فقبلى أطراف ثوبه ! »**

. . وهكذا زوجته ـ دون أن تتعرف رأيه ـ نكاية فى زوجته **الاولى التى اغضبتها !**

وعلى الرغم من ضآلة حجم الشريفة عزة ، الا أنها كانت أكثر من ند لاى رجل !

الحياة فى ضيعة الامير العربى

• **كان** على زائر (شملوجه) أن يعبر البسفور ، ويهبط فى (سكوتارى) ثم يتسلق التلال التى فى الجانب الاسيوى للبسفور . وكانت أسرة الشريف على حيدر تقيم فى ثلاثة بيوت ضخمة ــ بنيت من الخشب ــ فى الضيعة ، فضلا عن مبان منفصلة للمطابخ والحظائر ومساكن الخدم . وفى وسط المكان ، أقيم « السلاملك » الذى كان الشريف يستضيف فيه زائريه العديدين من الذكور ، والذى اعدت فيه حجرات للاستقبال خاصة بأخيه وأبنيه الكبيرين . وعلى مسافة ربع ميل ، فى موقع على السفح يعلو على مواقع تلك المبانى ، كان « البيت الكبير » ، حيث كانت « صبيحة هانم » ــ الزوجة الاولى للامير ــ وابنتها الشريفة نعمت وأبناؤها الاربعة يقيمون . كما كانت تقيم هناك اختا الامير ، وأخوه الشريف جعفر مع زوجته « خديجة » . والى أحد جانبى «السلاملك» ، كان ثمة بيت خشبى صغير ، أعد لفاطمة ــ عند زواجها من الامير ــ وأقامت فيه مع زوجها وابنتها الكبرى « الشريفة صفينة » ، وابنتها الوليدة « الشريفة مصباح » .

وكان الشريف على حيدر ــ كأمير عربى من نسل النبى ــ يعيش فى أبهة ملكية ، فلم يكن يمر يوم دون أن يستقبل « السلاملك » ضيوفا من ذوى المكانة والقدر . ولم يكن الضيف يسأل قط عن مدى اقامته . ومن ثم فقد كانت المطابخ مركزا هاما فى المقر . وما من أمير أو « باشا » أو «بك» ــ فى تركيا ــ الا ذاق أطعمة « عثمان أغا » كبير طهاتها ، الذى لم يكن صيته ليقل عن صيت كبار رؤساء الطهاة فى أوربا . وكثيرا ماكانت خدماته تعار للقصر السلطانى فى المناسبات ..

ولم تكن موائد « الحريم » و « السلاملك » لتضم في موعد الافطار — في أي يوم من أيام شهر رمضان — أقل من ثلاثين ضيفا . وكانت أنغام العود والطبل تنبعث الى ساعة متأخرة من الليل !

وكانت حظائر الخيل تلى المطابخ في الاهمية ، اذ كانت تضم أكثر من ثلاثة عشر جوادا من سلالات أصيلة ، ترجع الى أعرق أصول الخيل العربية النقية الدم .

السادة يقبلون أيدى العبيد

• **وما أكثر** ماكتب عن فظائع الرقيق .. وهى أمور قد تصح عن نظام الاسترقاق عند الانجليز أو الامريكيين ، أما في قصور العرب ، فنادرا ماكان السادة يسيئون معاملة عبيدهم ، بل ان هؤلاء — ذكورا واناثا — كانوا يلقون اكراما ، ويصبحون — مع مرور الوقت — أعضاء معززين في الاسرة ، يأكلون مما يأكله السيد ، ويلبسون مما يلبس . **ولم يكن الشريف على حيدر يحب أن يستخدم عبيدا غير عتقاء . ومن ثم فانه اعتاد أن يحررهم بمجرد أن يبتاعهم ، ثم يسألهم ان كانوا يقبلونه سيدا . وكان جوابهم — دائما — ان يرتموا على قدميه فيقبلونهما !**

ولم تكن الاميرة فاطمة تحب استخدام العبيد ، ومن ثم فقد كان يقوم بطلباتها عدد من الخدم اليونانيين والارمن ، فكان عبيد الاسرة ينظرون الى هؤلاء الاجراء في استهجان ، لانهم كانوا يعتبرون أنفسهم أرقى منهم .. فهم أعضاء في الاسرة !

وكانت ترأس الجوارى — في « الحريم » — « الدادة » التى ربت الامراء صغارا . وكانت شركسية ، تسيطر في حزم على الجوارى العديدات من شركسيات ، وزنجيات افريقيات ، وحبشيات ، من كل الاعمار والاحجام . ومنهن من كانت تتزوج ، ثم لا تلبث أن تعود بأولادها الى الدار . **وكانت لهن**

الحرية فى أن يدخلن حجرة سيدة الدار – فى أى وقت – فيجلسن ، وينصتن الى كل حديث ، ويبدين – حسب أقدميتهن – آراءهن الخاصة. وكن يزجرن أطفال الاسرة ،بل وكبارها ، اذا ماكن من الجوارى المسنات ، الحائزات للثقة .



الشريفة مصباح

فاذا مرض أحد العبيد ، فانه كان يلقى خير عناية طبية . وكانوا يحصلون على أغلى أنواع الحرير والمخمل ، وعلى الجواهر ، كأى ابن أو ابنة للاسرة .. وكان صغار أبناء السادة يقبلون أيدى المسنين من العبيد والجوارى ، فى أيام الاعياد !

و (شملوجه) تعنى « مكان أشجار الصنوبر » .. وتحت هذه الاشجار السامقة ، كانت السيدات يتنزهن والاولاد يلعبون . وكانت الضيعة فى موقع بديع ، يضم أعالى اثنين من التلال ، فكانت الحدائق والبساتين فى البقاع المنخفضة ، تكسوها الزهور ، وتتخللها الدروب المرصوفة بالحصباء .. وكانت بها بئران ، احداهما جافة ، تحف بها النباتات الكثيفة، ويكمن حولها الغموض المثير ، وترتادها الافاعى . وكثيرا ماكان الاطفال يتلقون التحذيرات حتى لايقتربوا منها ، فلم يكن ذلك يزيدهم الا ميلا الى السعى اليها واتخاذها ملتقى لهم عند اللعب

عرس فى « الحريم »

• **وأول** مناسبة تذكرها «مصباح»، وتذكر انها صارت فيها فردا ذا مكانة ، هى زواج عمها الشريف جعفر .. فقد ارتدت ثوبا من « التافتاه » الزرقاء ، ذا حزام عريض ، وكان ينبعث حولها حفيف ووسوسة كلما سارت .. ونسق شعرها فى جدائل صغيرة استرسلت على كتفيها ، ثم أحيط عنقها بقلادة من اللآلىء . ثم قادتها جارية الى « البيت الكبير » ، حيث كانت العربات تتدفق ، فتفرغ شحنات من السيدات ، كان الخصيان يستقبلوهن الى حيث كانت الجوارى يقفن ليرحبن بهن ويقدنهن الى حجرة داخلية يخلعن فيها ثيابهن الخارجية القاتمة ، ثم يصلحن من زينتهن والجوارى ممسكات بالمرايا أمامهن

وكانت العمة ـ كبرى شقيقتى الامير على حيدر ـ هى رأس الاحتفال ، وقد سيقت اليها « مصباح » ، فأقبلت الصغيرة تقبل يدها البضة الرخصة ، وترفعها الى جبينها ـ كما علمتها أمها ـ ثم وقفت ساكنة ، وقد شعرت بأن أنظار جميع من كن فى الحجرة قد استقرت عليها . وكان عليها أن تحيى التالية للعمة الكبرى فى المكانة ، دون أن تخطىء ، وسط هذا الفيض من الوجوه . وحيت « مصباح » عمتها الصغرى ، ثم بحثت عن العروس .. **ووجدتها الى يسار العمة ، صبوحة الوجه ، ناضرة الشباب ، لطيفة .. ضمت الطفلة الى صدرها بشغف ، وقبلتها بحرارة ، وأرسلت ضحكة عالية رنانة ، فرفعت العمتان حواجبهما ، اذ لم يكن الضحك من حسن الادب ! .. كان دستور «الشريفات» أن لايضحكن الا ابتساما، ولا يتكلمن الا بصوت خفيض !**

وتحولت « مصباح » الى أم العروس ، فلوحت بيديها الى أسفل ، حتى وسطها ، تحية .. واذا السيدة تهب واقفة

فتنحنى وهى تلوح بيدها الى أسفل ، ردا للتحية .. فقد كانت الطفلة التى لم تتجاوز الثالثة ، « شريفة » تفوق السيدة مركزا ومكانة !

وكانت الجوارى يرحن ويجئن ، فى ثياب من المخمل الموشى بالقصب ، وهن يقدمن القهوة .. أما الجوارى الكبيرات، فكن يجلسن على حشيات على الارض ، فى ثياب من الحرير، وحلى براقة

من دسائس السلطان « عبد الحميد »

• **وكانت** المناسبة الثانية التى لصقت بذهن « مصباح »، هى زيارة قام بها الاغا الذى كان فى خدمة « قادن أفندى » ، الى الاميرة فاطمة .. وكانت « قادن افندى » هى الزوجة الاولى للسلطان مراد . **وهو السلطان الذى لم يتول العرش لاكثر من بضعة أشهر من سنة ١٨٧٦ ، ثم قيل انه مجنون ، وسجن فى قصر « تشداغان » مع جميع افراد اسرته ، بأمر أخيه الاصغر « السلطان عبد الحميد » الذى استأثر بالعرش !**

وقد ظل السلطان مراد سجين قصره الى أن مات فى سنة ١٩٠٤ . فنشأ أولاده وتزوجوا ، وأنجبوا وراء أسوار هذا القصر القائم على ضفة (البوسفور) ، حيث كانت كل صلة لهم بالعالم الخارجى مقطوعة .. وكان الطعام يأتيهم فى صحاف مختومة من قصر (يلدز) ، مقر السلطان

ولم يكن السلطان مراد مجنونا ، وانما كان ضحية مكيدة من أخيه . والواقع انه كان رفيع الثقافة ، موهوبا فى الموسيقى . وقد ورث عنه هذه المواهب ابنه الاوحد — الامير صلاح الدين — وبناته الست ، الذين لم يظفروا بحريتهم الا عقب خلع السلطان عبد الحميد ، بفضل حركة التحرير التى قام بها شباب « تركيا الفتاة »

« عبد الحميد » يزف ابنة أخيه الى لقيط !

• **ومما** فعله السلطان عبد الحميد ـ الاحدب الخبيث ـ بأخيه ، انه عندما زوج ابنتيه ، دبر مكيدة شيطانية ، امعانا فى اهانة أخيه ، بأن قرر أن يزوج ابنتى مراد ، الاميرتين فاطمة وخديجة ، ودبر كل التدابير ، وأثث بيتى الزوجية لهما .. **ولم تتكشف الحقيقة المروعة للاميرتين ، الا أثناء حفلة الزفاف ، فاذا الزوجان المختاران لهما .. لقيطان من أحد ملاجىء (استانبول) ! ولقد رفضت الاميرة خديجة أن تسمح لزوجها بأن يلج مخدعها ، فلما سمع السلطان بذلك ، غضب أشد الغضب ، وأرسل اليها من قال لها : « اذا لم يتلق السلطان ـ فى أقرب فرصة ـ دليلا كافيا على تحقيق الزواج ، فسينشر نبأ بأن صاحبة السمو السلطانى الاميرة خديجة قد فقدت بكارتها بفعل أبيها ! »**

واضطرت الاميرة الى الخضوع .. وفى الليلة الموعودة ، سمحت لزوجها بدخول مخدعها ، وبعد نصف ساعة ، استدعت « الاغا » ، وعهدت اليه بمنديل أبيض ملطخ بالدم ، ليحمله الى السلطان .. ولكن زوجها لم يلج المخدع بعد ذلك قط .. وان لم تستطع الاميرة أن تظفر بطلاق منه الا بعد خلع السلطان عبد الحميد فى سنة ١٩٠٨

أعرق من السلطان نفسه !

• **ولقد** كانت زيارة الاغا القادم من قصر الاسرة السجينة مقدمة لحادث تاريخى .. اذ كان السلطان قد عرض أن يزوج ثلاثا من صاحبات السمو السلطانى الاميرات ، الى ثلاثة من الاشراف ، هم الشريف جعفر والشريفان عبد المجيد ومحيى الدين ، ولدا الامير على حيدر . ولم يلق العرض قبولا فى الاسرة الاخيرة ، اذ كان للشريف أن يتزوج « شريفة » ، أو

شركسية ، أما ان يتزوج ابنة سلطان ، فلا .. أى أصل عريق تنتمي اليه ؟ .. ان تاريخ سلالتها لايتجاوز أربعمائة سنة ، فكيف تليق بسليل ألنبى ؟

ورفض الشريف جعفر فى اباء . وكان الامير محيى الدين فى السابعة عشرة ، لايزال دون سن الزواج .. أما الامير عبد المجيد ، فقد وقع اختياره - بتأثير أبيه وتحبيذ الاميرة فاطمة الانجليزية - على الاميرة ((رقية)) ، ابنة الامير صلاح الدين ، وحفيدة السلطان مراد .. وكانت زيارات كبير ((الاغاوات)) ، ترمى الى التعجيل بعقد القران . ولكن الامير كان لايزال يتلقى دروسه بالجامعة التركية

وفى ذات يوم ، قدر لمصباح وأختها أن تزورا قصر الامير « صلاح الدين » ، فى صحبة أمهما .. واندفع الخصيان نحو العربة ، فأمسك كبيرهم بذراع الاميرة فاطمة ، وأمسك «أغا» آخر بذراعها الثانية ، وراحا يساعدانها على صعود السلم . ودهشت الصغيرة اذ تبينت أن جدران بهو القصر كانت مرايا محوطة باطارات مذهبة !

وعند باب قاعة كبيرة ، تقدمت سيدة شابة ، وانحنت فقبلت يد فاطمة ، فعانقتها هذه وقبلت خديها ، ثم قالت : « مصباح ، قبلى يد يينجا ! » .. و « يينجا » كلمة تركية معناها زوجة الاخ . وهكذا كان أول لقاء بين مصباح و«رقية سلطان » ، فان بنات السلاطين كن يحملن لقب « سلطان ! »

وتزاحمت الجوارى على القاعة .. من « قلفاوات » - رئيسات - و « خلايق » .. و « الخازندار أوسطه » ، وهى مدبرة شئون القصر والموكلة برئاسة الجوارى ، والمسئولة عن مجوهرات الاسرة .. و « الطايا » ، وهى مرضعة الاميرة . وبينما كانت القهوة تقدم ، أقبلت شقيقتا « رقية » وهما « عديلة » و « عطية » . **وكانت الاميرات الثلاث فى ثياب أوربية من أحدث طراز . فقد أحدثت زيارة الامبراطورة**



الاميرة مصباح فى صغرها

« أوجينى » لاستانبول ـ ابان حكم السلطان عبد العزيز ـ انقلابا فى أزياء « الحريم السلطانى ! »

وحاولت فاطمة أن تستدرج رقية الى الحديث لتتعرف آراءها وميولها . ومع أن ذلك قد يبدو غريبا لنسوة اليوم المتحررات ، فان المستوى الثقافى لنساء « الحريم » كان مرتفعا الى حد بعيد ، لاسيما فى القصور السلطانية . وكانت النسوة يعشن فى « حريم » هذه القصور فى بهاء وود. فليس من عادة الشرقية أن تكشف مافى قلبها ، بل ان وجهها قناع رائع يخفى كل شىء .

أفراح الامراء ..

• **وحان** أخيرا اليوم الذى تتخذ فيه الاجراءات الحقيقية للزواج . ورغب والد العروس الى الشريف على حيدر فى أن يأخذ المبلغ الذى قررته الخزانة السلطانية للعروس ، فيبتاع به دارا للعروسين . ولكن الشريف أبى أن يمس شيئا من هذا المبلغ ، وابتاع لهما دارا قريبة من دارى اختى العروس . وبدأت الهدايا تنهال على هذه الدار ، فقدم السلطان الاثاث وعربة رشيقة وزوجا من الخيل ، وقرطين ذوى فصين من الماس « السوليتير » ، وقلادة ووسام العثمانية ذى الرصيعة الماسية .

وكانت ثمة جاريتان رافقتا الاميرة العروس الى بيت

الزوجية ، هما : المرضعة (الطايا) ، والمربية (الدادة) . أما ابنة المرضعة ـ أخت الاميرة فى الرضاع ـ فانها شغلت منصبا رفيعا فى الدار .

وأقيمت حفلة للسيدات فى بيت الزوجية ، بينما أقيمت حفلة للرجال فى قصر « تشارجان » . وكان على أقارب الزوج أن يرافقوه ـ فى المساء ـ حتى بيت العرس .

وكان من المعتاد أن ترافق أم العروس وحماتها وعمتها الفتاة الى بهو الدار ، عند وصول الزوج .. أما اذا كانت العروس أميرة ، فان « الكيزلر أغاسى » ـ كبير أغوات السلطان ـ هو الذى يرافقها الى البهو . وهناك ، يتقدم الزوج فيقبل يدى أمه وحماته ، ويد زوجته ـ اذا كان جريئا ـ بينما تظل قسماتها تحت القناع المسدل على وجهها . ويضع « الكيزلر أغاسى » يد العروس فى يد « العريس » ، ثم يقودها الى « الصالون » ، حيث تنثر عجائز الاسرة قطع النقود الجديدة حولهما

برنامج دراسى مزدحم

• **واشتد** تعقد الحياة ـ فى نظر « مصباح » ـ عندما ازداد ايغالها فى الدراسة . فقد كان أبوها الشريف حيدر يلقى عليها وعلى أختها درسا فى القرآن ،كل صباح، كما كانت أمهما « فاطمة » تقرأ لهما من « التوراة » . وكانت ثمة عجوز انجليزية ـ تدعى «مس بتيلا» ـ تدربهما على النطق بالانجليزية، فى حين كانت « اليس » ـ ابنة عمر باشا نوفوتنى ـ تلقنهما أصول هذه اللغة .. فضلا عن انهما كانتا تتعلمان الفرنسية على « مدموازيل بوتان » ، التى كانت أحب المدرسات الى « مصباح » ، لاسيما وانها كانت تحضر معها ـ فى يوم الخميس من كل اسبوع ـ فتاة مجرية تدعى «ايفا» لتدريس الرقص . وكانت تدرب الاميرتين على العزف على «البيانو» يهودية تدعى

« مدموازيل جولدنبيرج » ، كما كانتا تتعلمان الرسم على أرمنية تدعى « آسنيف » . أما اللغة التركية ، فكان يلقيها عليهما سيد بغدادى وقور ، ذو لحية بيضاء ، يدعى « أمين أفندى »

وكانت « فاطمة » تصطحب ابنتيها – مرة فى الاسبوع – فى نزهة بالعربة الى (فناراكى) ، ملتقى علية القوم فى الأصيل .. وهى عبارة عن لسان فى البحر ، مكسو بأشجار البلوط الكثيفة .. وكان ثمة منار (فنار) قائم على مرتفع من الارض، ومقهى يبيع المياه الغازية و « السميط » ! .. وقد اعتادت عربات الامراء والباشوات أن تتوافد على هذا المكان ، وكثيرا ماكانت تقف تحت الاشجار الكثيفة ، فتهبط منها السيدات ويتمشين الى صخور الشاطىء .. وكانت سيدات الطبقة الرفيعة فى (استانبول) يتواعدن على اللقاء فى (فاناراكى) .

موقف انجلترا من تسليح الشرق .. دائما !

• وفى أحد أيام شهر يونية سنة ١٩١٤ ، شاهد رواد (فاناراكى) ، ملاحين طوال القامة ، حمر الوجوه والاعناق ، فى ثياب كحلية ، وقد ارتدوا طرابيش على رؤوسهم . وكانوا أكثر من الملاحين الاتراك نظافة وأناقة .. وقالت فاطمة – وقد بدا الغضب على وجهها – انهم كانوا من الالمان .. والحق انهم كانوا ملاحى بارجتين أهدتهما ألمانيا الى تركيا ، ولكى يتجنب السلطان خرق « البروتوكول » – الذى كان بينه وبين انجلترا – رؤى أن يرتدوا طرابيش

ولم يكن من حديث بين الاميرات – فى ذلك اليوم – سوى نبأ وصول البارجتين : «ماأكرم الالمان اذا قيسوا بالانجليز !.. لقد ساهم كل فرد لشراء بارجتين من انجلترا ، فلماذا رفضت انجلترا أن ترسلهما ؟ .. انه الجشع .. الجشع المحض ! »

كان الاتراك قد اكتتبوا لشراء سفينتين من انجلترا ، ولكن

سياسة « جلادستون » حالت دون تسليم السفينتين. وكانت هذه احدى أخطاء الديبلوماسية البريطانية فى تركيا ، مما دفع بهذه الى أحضان ألمانيا !

وشهدت الشريفة مصباح واختها - ذات يوم - موكبا عسكريا فخما .. كان ثمة جيش تركى يمر بشملوجه ليحارب ضد الروس . وخيل للصغيرتين أنهما أمام جدول دافق من الرجال والحيوان والمركبات ، يحف به الغبار والضجيج .. وكان الرجال يرفعون أصواتهم بالاناشيد فى ابتهاج وشجاعة ، دون أن يدروا أنهم انما كانوا يسيرون الى حتفهم .. وكان آلاف وآلاف من أمثالهم ، يسيرون فى كافة أنحاء أوربا - فى سنة ١٩١٤ - أشبه ببيادق الشطرنج فى أيدى السياسيين .. ضحايا جهلة ، سذج ، بواسل ، يسيرون الى الموت !

أجدادها من ثوار ايرلندا وأشراف العرب

• **وكانت** « فاطمة » قد علمت طفلتيها أن الانجليز هم أعظم أمة فى الدنيا ، وكانت لا تفتأ تصف لهما كل مكان فى انجلترا ، حتى أن « مصباح » لم تجد عناء فى تعرف طريقها عندما زارت انجلترا لاول مرة .. على ان ايمان « مصباح » بالانجليز - كشعب مثالى - تزعزع عندما كبرت . بل انها تبينت أنهم كانوا أدنى من القوم الذين نشأت بينهم ، فى نواحى كثيرة .

وكان لمصباح تراث مختلط . كانت أمها تدعو نفسها انجليزية ، مع أنها كانت ايرلندية ، من سلالة ثائر فر من الانجليز ، ولم يجد خيرا من لندن مخبأ يلوذ به ! .. وكان خال أمها خطيب الثورة الايرلندية « جراتون » .. أما من ناحية الاب ، فكانت مصباح من سلالة النبى محمد . **ومن ثم فقد كان من أشق مشكلات حياتها ، انها لم تكن تدرى الى أى الجانبين تتجه عواطفها : العرب أم الانجليز ، الشرق أم الغرب ؟ .. كانت تشعر - فى بعض الاحيان - بأنها عربية ،**

وعربية متطرفة .. وكانت – فى أحيان أخرى – لاتقبل أتفه انتقاد للتقاليد الانجليزية . كان العرب قوما من أعرق وأنقى عناصر البشر ، ولكنهم رانوا الى الاغفاء قرونا ، فتخلفوا عن سواهم . فما حيلة فتاة ازاء ذلك ؟ .. ليتها كانت ولدا !

ولقد أدخلت فاطمة على بيت الامير العربى المسلم تقاليد الاعياد المسيحية ، ورأى الامير ان وجود شجرة عيد الميلاد ، وملء جوارب الاطفال بالهدايا ، تسلية بهيجة مستملحة ! .. وكان « آبيه » – لقب تركى للأخ – عبد المجيد ، يتنكر فى هيئة « بابا نويل » فى هذه المناسبة !

يخسر ثروته بفضل صداقته للانجليز !

• **وبمقدم** الحرب ، انتشر العنصر الالمانى فى جو استانبول ، وأصبحوا موضوع الحديث فى « الحريم » .. ولم يكن الالمان محبوبين ، ولكنهم كانوا موضع اعجاب ، لروحهم العسكرية . وكانت « فاطمة » تحمل الطفلتين على أن تصليا فى كل ليلة من أجل الحلفاء . ولقد أنبأت زوجها بأنها أبقت على انجليزيتها ، وانهاتعلم ابنتيها حب الانجليز ، فلم يمانع .. فلقد كان الشريف ينأى بانسانيته ، وشعوره بالعدالة ، عن العواطف العارضة .. ولقد تزوج من انجليزية برغم السلطان نفسه ، وعلم ابنيه اللغة الانجليزية ، وكان يعجب بأساليب الانجليز ومبادئهم .. ومن سخريات القدر انه خسر – فيما بعد – كل ثروته ونفوذه السياسى ، من جراء صداقته للانجليز !

على انه – رغم ذلك – ظل وطيد الولاء للاتراك .. وكان – بفضل نفوذه كنائب لرئيس مجلس الشيوخ العثمانى ، وعضو فى الوزارة التركية – يحث الاتراك على ضرورة انتهاج سياسة تقدمية واستقلالية نحو العرب . وكان حلم عمره أن تقوم أمة عربية موحدة ، متضامنة ، مركزها الحجاز . وان تتألف حكومتها المركزية من العرب ذوى الخبرة المحنكين ، وأن تقوم

فيها طبقة متعلمة تتولى شؤون هذه الدولة الواسعة ، التى تمتد من جبال (طرطوس) الى (حضرموت) ، ومن البحر الابيض المتوسط الى الخليج الفارسى والمحيط الهندى .

يدرس تاريخ الدولة .. للحريم !

• **نشأت** « مصباح » وأخذت تترعرع فى جو ذى طابع خاص . فكم جلست تنصت الى أبيها وأمها وهما يتناقشان فى المسائل السياسية للدولة العثمانية .. وكان يتوافد على (شملوجه) رجال من كافة الدرجات والمراكز ، فيتكلمون ويتناقشون .. وما من مجتمع ديموقراطى بمعنى الكلمة ، كهذا المجتمع الذى كان للامير وللعبد أن يعربا فيه عن آرائهما، على قدم المساواة .

وكان العم — الشريف جعفر — عضوا فى مجلس الشيوخ ، وعضوا فى جماعة « الاتحاد والترقى » ، الهيئة السياسية ذات الطابع العنيف، التى كانت تسبب لهذا العم حيرة وارتباكا،كان ينفثهما عن صدره فى المجلس الذى يضمه وأبناء وبنات الاخوة، اذ كان يجد فيهم مستمعين مؤدبين !

وكان الشريف على حيدر منهمكا فى شؤون الدولة ، ومن ثم فان الشريف جعفر هو الذى كان يتولى شؤون الاسرة ، وكان يحكم كل امرىء بعصا من حديد . وفى ذات يوم ، عرف أن نساء الاسرة كن يتقن الى مادة يقرأنها ، فقرر أن يقرأ عليهن — فى جلسات يومية — « تاريخ الدولة العثمانية » ، الذى كان يتألف من ثلاثين كتابا ! .. ولكنه لم يلبث أن عدل عن التجربة — منذ الجلسة الاولى — اذ أثار غضبه أن السيدات والجوارى لم يطقن أن يمكثن ساعة طويلة دون أن يتهامسن أو يتكلمن بأصوات خفيضة !

وكانت سيدات « الحريم » يتقن الى الخروج فى نزهات يتناولن خلالها الغداء فى الخلاء، أو فى جزر بحر (مرمرة)،لاسيما

جزيرة (خالقى) ، مقر المدرسة البحرية . فكان الاغاوات ينقلون الى هناك الحملان ، وأشهى الاطعمة والحلوى ، وأدوات المائدة الفضية ، والاوانى الخزفية والبلورية .. وكانت «اللنشات» تقل الجميع فى جو من الصخب والابتهاج.

بساطة المترفين والمترفات !

• وفى احدى المرات ، رؤى الذهاب الى جزيرة (خالقى) فى ضوء القمر .. وما ان مدت الموائد ـ بين أنغام الموسيقى والغناء ـ حتى هتفت « عطية سلطان » ـ ابنة السلطان مراد : « ما أجمل البساطة ! » .. وكانت البساطة ـ فى نظرها ـ الموائد ، والمقاعد ، والادوات الفضية ، وقوائم الاطعمة المطبوعة ، والبطاقات التى ثبتت الى المقاعد ، لتعين لكل فرد مكانه !

وكان ثمة تجديد فى هذه المرة ، فان « صلاح الدين بك » ـ زوج « عديلة سلطان » ـ كان معروفا بتطرفه فى الاخذ بعادات الاوربيين .. وقد أمر باحضار صناديق مليئة بزجاجات البيرة ! .. **وأقبلت الاميرات والشريفات على هذا الشراب الغريب بفضول . ولكن « فاطمة » كانت متأثرة بتعاليم العهد الفيكتورى ، التى نشأتها عليها امها فى انجلترا ، فراحت تردد : « ان البيرة شراب لايليق بالسيدات ! » .. ولكن أحدا لم يصغ اليها ، بل قالت الاميرات الشابات : « ان الخمر حرام حقا ، ولكن البيرة .. شىء آخر ! »** . ورحن يسرفن فى احتسائها ، وفاطمة تنظر فى جزع الى العواقب . وفعلا ، لم يلبث مفعول البيرة أن سرى الى الرؤوس ، فقفزت « عطية سلطان » من مكانها ، وأمسكت بالصغيرة «مصباح» ، وراحت تدور بها فى جنون ، حتى بلغت بها حافة البحر ، وكادت تفقد توازنها ، لولا أن خف الجوارى لتدارك الموقف

وعندما عاد الجميع الى « اللنشات » وقد اكتهل الليل ،

كانت كثير من الرؤوس تدور من مفعول الشراب العجيب !..

يسترقن النظر الى الامير الجميل !

• **وكان** صلاح الدين بك مولعا باقامة المآدب والحفلات . وقد ذهبت « مصباح » مع أختها يوما الى حفلة عشاء ، فى صحبة زوجة أخيهما « رقية » ، اذ تلقتا دعوة مطبوعة بالحروف المذهبة .. وكان الرجال فى « السلاملك » ، بينما كانت السيدات ــ وكلهن من الاميرات ــ فى « الحريم » . أما الاطفال ، فكان مباحا لهم التنقل بين الفريقين ، لينقلوا كل أخبار الرجال الى النساء . وكان البيت يعج بالضحك والموسيقى ، وقد احتلت الفرقة السلطانية الحديقة ، وراحت تعزف الالحان .. بينما كانت ثمة فرقة شرقية تعزف على العود والطبل داخل القصر . وراح ممثل هزلى مشهور ، يستثير الضحكات أينما حل بين الرجال ، كما كانت ثمة زميلة له ترفه عن النساء .

ومدت موائد العشاء فى ساعة متأخرة ، واستغرقت المأدبة ساعتين . وأسرعت « مصباح » ــ بعد ان التهمت عشاءها ــ الى « السلاملك » ، فرأت بين الضيوف عددا من الالمان لم يلبث « صلاح الدين بك » ان قادهم الى غرفة مكتبه ، حيث كان قد سبقهم عدد من علية القوم، ليتناولوا القهوة فى هدوء. وكان بين هؤلاء ، رجل بدين ، ذو وجه ممتلىء صبوح،وعينين سوداوين متألقتين .. ذلك هو « طلعت باشا » وزيرالداخلية ــ الذى كان صديقا للشريف على حيدر ــ والامير فاروق ، ابن السلطان عبد المجيد ، آخر سلطان عثمانى .. وكان الامير طويل القامة ، جميلا ، حتى أن السيدات كن يتلهفن على استراق النظر اليه من وراء الستر ، ليعجبن بخصره النحيل، وكتفيه العريضتين ، وعينيه الزرقاوين .. كان أميرا فاتنا !

مدى نفور الالمان من الانجليز

• **ولمح** صلاح الدين بك الشريفة الصغيرة فاسرع يدفعها

نحو أحد الالمان ، وقال له : « جنرال ليمان فون ساندرز باشا .. هذه هى سمو الشريفة مصباح » . فنهض الرجل واقفا ، ودق كعبيه ، وانحنى . ثم ابتسم ، وجلس ، ورفع الطفلة الى ركبتيه .. وما لبث أن أبدى عجبه من بياض بشرتها ، فقال صلاح الدين بك : « ان امها انجليزية ! » . **وأحست « مصباح » بالرجل يجمد فى مكانه ، وقد فتر ابتهاجه ثم أنزلها عن ركبتيه .. فقد كان الجنرال رئيس البعثة العسكرية الالمانية فى تركيا !**

ولقد حدث بعد فترة ، أن أنجبت « عديلة سلطان » طفلة أسمتها « نايلوفير » .. هى التى أصبحت ـ فيما بعد ـ زوجة لنظام حيدر آباد . وكم كانت دهشة « فاطمة » حين زارت الوالدة ، فوجدت الى جوار فراشها ممرضة عسكرية ألمانية . **فان زوجها صلاح الدين بك المعروف بولعه الشديد بالتجديد ، سعى بنفوذه لدى مستشفى الجيش الالمانى باستانبول ليستعير احدى ممرضاته لتشرف على زوجته عند الوضع !**

وكانت فاطمة متلهفة على تعرف أخبار أسرى الحرب الانجليز ، لدى الالمان . فاستدرجت الممرضة الى الحديث عنهم ، ثم سألتها : « وهل يلقون رعاية فى المستشفى ؟ » . فأجابتها الالمانية : « وماذا تتوقعين ؟ أليسوا انجليز ؟ .. انهم لايتلقون مخدرا عند اجراء العمليات الجراحية لهم ! »

ولم تستطع فاطمة أن تمكث طويلا .. وما أن عادت الى بيتها ، حتى تحدثت الى الشريف على حيدر فى الامر ، فتحدث بدوره محتجا الى طلعت باشا .. وان هى الا أيام ، حتى نقل طبيب المستشفى العسكرى الالمانى الى الميدان !

امرأة تفرض رغبتها على السلطان

• **ولقد** ظلت أسرة السلطان مراد فى قصر « تشارجان » بعد وفاته ، ثم بعد وفاة ابنه .. وتعرض أهل القصر

لاضطرابات محزنة فى سنة ١٩١٨ ، عندما دخل الحلفاء (استانبول) . فقد احتلت القوات الفرنسية جزءاً من القصر . وأرادت القيادة البريطانية أن تحتل الجزء الآخر ، الذى كانت تشغله الاسرة . فما كان من « قادن افندى » — زوجة السلطان مراد — الا أن دعت اليها مندوب هذه القيادة ، وقالت له : **« لقد تركنى أفندينا فى هذه الحجرة ، عندما مات .. ولسوف أظل بها حتى أبارحها فى أكفانى ! » ..**

وهكذا قدر للأسرة أن تبقى الى أن تولى الكماليون السلطان فى سنة ١٩٢٢ . فلقد طرد الكماليون أفراد الاسرة ، فتشتتوا فى أرجاء أوربا . ولكن « قادن افندى » كانت الوحيدة التى ظلت فى القصر ، اذ تشبثت بالقرار الذى سبق أن ذكرته للانجليز !

فى حمامات « حريم » السلطان

• **ولقد** زارت « مصباح » وأختها قصر « تشارجان » مع امهما ، فى تلك الاثناء .. واستقبلتهن « قلفاوات » — أى الجوارى الوصيفات — للايكنجى قادن — أى الزوجة الثانية للسلطان — والخازندار أوسطه ، وهى الموكلة بأموال القادن .. **وقدنهن الى قاعة واسعة ، بها سرير هائل اعتلته سيدة سمينة ، مرحة ، ذات وجه ممتلىء بشوش . ولقد كانت يوما الزوجة ذات الحظوة لدى السلطان مراد ..**

وتسللت الشريفتان الصغيرتان مع القلفاوات الى الحديقة ، حيث راحتا تمرحان بين أحواض الزهور . وما لبثت أقدامهما أن قادتهما الى « الحمامات » التى تمتاز عن غيرها من البنايات بسقوفها المبسوطة ، تعلوها قباب من البلور . واندفعت الصغيرتان الى الداخل ، تتبعهما الجوارى ضاحكات . وكان المبنى يتألف من حجرات بعضها داخل بعض .. ففى المقدمة حجرات الجلوس ، ثم تفضى أبواب مبطنة بطبقة مزدوجة من اللباد القرمزى الى الحجرات الداخلية ، ثم حجرات خلع الثياب المجهزة بأرائك طويلة مكسوة بقماش من أقمشة

« البشكير » .. وأخيراً ، حجرات ، الاستحمام . وكان ثمة عدد منها ، بين حجرات صغيرة وحجرات كبيرة ، ذات أرضية من الرخام ، وقد جهزت بأحواض حجرية كبيرة ، ألصقت بالجدران ، تحت صنابير الماء الضخمة . وكانت بعض الحجرات مجهزة بحوض واحد ، لمن تؤثر الاستحمام بمعزل عن سواها . كما كانت ثمة حجرات جهزت كل منها بعدد من الاحواض ، لمن يجدن مرحا فى الاستحمام جماعة !

المرأة الشرقية سبقت الغربية فى الزينة

• **وكانت** كل حجرة من حجرات الاغتسال مجهزة بزوج من القباقيب الخشبية ، وبعدد من المقاعد الخشبية المنخفضة ، وطاسات من الفضة . فكان على المغتسلة أن تجلس على أحد المقاعد ، وتملأ طاسة بماء ممزوج بالصابون ، ثم تمسح جسمها . واذ ذاك تغترف جاريتها الماء من الحوض الحجرى ، بطاسة صغيرة ، وتصبه على جسم مولاتها ، مبتدئة من الرأس ، وفقا للتقاليد الاسلامية .

وكانت المرأة الشرقية تصنع مستحضرات التجميل لنفسها ، فتنقل الى حمامها : من حناء ، الى معاجين لنزع الشعر الزائد ، الى معاجين لتطرية البشرة (كريم) . **وكانت هناك نساء مخصوصات لتزيين المستحمات وتدليك أجسامهن .. فكانت الحناء توضع على الشعر ، ثم توضع فوقها أوراق الشجر الخضراء ، ويلف الرأس فى منشفة . وتترك الحناء لتفعل مفعولها ، لفترات تتفاوت بتفاوت درجة اللون المنشود . وفى خلال هذه الفترات ، تصبغ أظافر اليدين والقدمين بالحناء كذلك** . ثم يزال الشعر الرفيع النامى على الذراعين والساقين بعجينة من السكر والليمون ، تبسط على البشرة ثم تجذب بخيط حريرى ، فاذا الجلد ناعم وأبيض الى أقصى حد . على أن العملية كانت تتطلب مهارة بارعة ، اذ أن الايدى غير الخبيرة

كانت كفيلة بأن تسلخ الجلد !

وكانت السيدة تستلقى على طاولة خشبية ، وتشد جسمها ، بينما تتولى احدى الجوارى تدليك بشرتها بالماء والصابون ، بنوع مخصوص من اللوف .. فلا يلبث الجسم أن يكتسب طراوة ونظافة رائعتين . ثم يسكب الماء الجارى — من جديد — على الجسم حتى يزال عنه الصابون ، ويلف بعد ذلك فى وشاح من قماش « البشكير » . ثم تنتقل السيدة الى حجرة الجلوس فتستلقى على أريكة الى أن تهدأ حرارة جسمها ، ويجف عنه الماء . وتقدم اليها — بعد ذلك — القهوة والشربات .

لقد كانت المرأة الشرقية تستمتع بنعيم « الحمام » ، فى الوقت الذى كانت فيه اختها الغربية تجهل هذه الالوان من الترف الذى يحفظ الجسم نظيفا الى درجة عجيبة !

بين اللغة الفرنسية و « الدندرمة » !

• **وبدأت** « مصباح » تلاحظ أن عدد الضيوف الذين كانوا يتوافدون على « السلاملك » قد أخذ يزداد باقتراب الصيف .. كانت ثمة حركة غريبة ، مشحونة بغموض !

وكانت الحكومة التركية قد غضبت — فى تلك الاثناء — على الشريف حسين ، شريف مكة ، لانحيازه الى الانجليز

وفى أحد الايام الحارة ، فى شهر يونية من سنة ١٩١٦ ، أقبل الشريف على حيدر الى قاعة الجلوس بينما كانت فاطمة منصرفة الى القراءة ، وابنتاها عاكفتين على دروسهما . وقال الشريف بصوت نم عن انه كان يكبت انفعالا : « فاطمة ، أريد أن أتحدث اليك » . ودلفا الى غرفة مجاورة ، فانسابت تمتمتهما خافتة — لوقت طويل — الى اذنى الفتاتين .. **ولكن « مصباح » لم تكن تعنى بالانصات اليهما ، اذ كانت تصيخ السمع فى انتظار صوت أليف كانت مشوقة اليه ..**



الشريف على حيدر

صوت ((فهيم)) الالبانى ، بائع المثلجات .. وما لبثت أن سمعت النداء المرتقب : ((دندرمة .. دندرمة !))

وهتفت، وهى تلقى من يدها كتاب اللغة الفرنسية : ((الى الجحيم هذه اللغة المعقدة .. لقد كان عمى على حق اذ نبذ هؤلاء القوم بأسرهم ، ووصفهم بأنهم ((حثالة)) ، لا أخلاق لهم .. أكلة الضفادع !)) .. ترى هل وجدت يوما ((دندرمة)) تفوق تلك التى كان ((فهيم)) يصنعها من اللبن والفواكه الطازجة .. دون ما مواد كيمياوية تزيف طعم الفواكه ؟ !

وبعد أن التهمت الشقيقتان ((الدندرمة)) فى الحديقة ،عادتا الى قاعة الجلوس ، والى اللغة الفرنسية . واذا باب الحجرة المجاورة يفتح، وأقبلت فاطمة بعينين دامعتين، ووجه حزين. وأقبل الشريف فى أثرها ، فنادت الام ابنتيها وقالت : ((لقد قبل أبوكما امارة مكة .. هيا وقبلا يديه !))

الاحتفال بوالى مكة الجديد

• **هكذا** عادت اليه أخيراً امارة أجداده .. الامارة التى انتزعها محمد على ـ والى مصر ـ من جده ((عبد المطلب)) ، فردها اليه ـ هو ـ الصدر الاعظم ((سعيد حليم)) ، حفيد محمد على ! .. فما أعجب تصاريف القدر !

وفى ١٦ يونية ، كان من المقرر أن يقرأ فرمان التعيين علانية ، فى الباب العالى .. وأعد لذلك احتفال كبير ، وموكب رسمى مهيب ، كان على الشريف أن يرحل أثره مباشرة الى

مكة . فأعدت كافة المعدات، وتولت السلطات الحربية الالمانية اعداد الخيام ، والمعدات الطبية والعسكرية للحملة

وقدر لنساء الاسرة وللأميرات أن يشهدن الموكب . . وكانت كل الشوارع المفضية الى « الباب العالى » مزدحمة بالناس ، وقد اصطف الجنود على الجانبين . وفطنت « مصباح » فجأة الى أن هذا كله كان تكريما لابيها . . الاب الذى ألقى عليها وعلى اختها الدرس الدينى المعتاد فى الصباح ، ثم قبلهما فى حنان وهو يبارح الحجرة . . وفى احدى الشرفات المطلة على الميدان الكبير ، وقفت مصباح تطل على البحر البشرى الذى كان فى الميدان . . وفجأة ، خفق قلب « مصباح » ، اذ أقبلت من بعد فرقة موسيقية ، تتلوها فصيلة من الجنود المشاة ، ثم حرس الامير الخاص وقد توجت رؤوسهم الكوفيات والعقال . . تتبعهم عربات مكشوفة عديدة .

واشتد الانفعال ، وتدافع الناس . ثم رأت « مصباح » أباها . . الشريف الاكبر لمكة ، وقد ارتدى عمامة بيضاء — يتدلى الى جانب منها طرف صغير ، اشارة الى مرتبته فى سلالة الاشراف — وجبة سوداء ، موشاة بالقصب ، وقد أحاط بصدرها الشريط القرمزى للوسام العثمانى ، ورصع الصدر بكثير من الاوسمة والنياشين . . وكان على حيدر يجلس وحيدا ، فى عربة رسمية كبيرة ، مكشوفة . . **واستولى على « مصباح » شعور مبهم . . أحست بأنها جد بعيدة عن أبيها . واندفعت كسهم مارق ، فهبطت الى الطريق قبل أن يفطن اليها أحد ، وراحت تجرى حتى لحقت بالعربة . وصرخت فى الجند : « افسحوا الطريق ! » . ثم شقت لنفسها سبيلا الى جانب العربة ، وصاحت : « بابا ! . . بابا ! » .** وسمعها ، فالتفت ، ورفع يده محييا وهو يبتسم . . ثم ابتعد الموكب . . ووقفت « مصباح » جامدة !

اقرأ معى :



كتاب الشهر

عزيزى القارىء ..

قدمت لك فى هذا الباب من قبل ، الكتب الشائقة التالية : آراء جريئة فى السياسة . كيف نجحوا فى الحياة . الحياة فى موسكو . آلهة ومقابر وعلماء . الالمان ، شعبا وعباقرة . مستقبل زوجك فى يدك . التاريخ السرى للاحتلال البريطانى لمصر . أقنعة الحب السبعة . فى داخل افريقيا . من فرعون الى فاروق . كفاحى (لسومرست موم) . خفايا العلوم الفرعونية . قناة السويس . دزرائيلى . عالم الغد . رابعة العدوية . اينشتين . أخلاق أهل مصر وعاداتهم . تاريخ الجمال . عمر الخيام ..

واليوم أقدم لك كتابا علميا لا غنى عنه ، هو : « شباب متجدد وحياة أطول ! »



شباب متجدد..
وحياة أطول!

للعالم الروسي البحاثة : ل . فريدلاند

عرض وتلخيص : فوزى الشتوى

تستطيع أن تعيش شابا ١٥٠ عاما !

• تؤكد الابحاث العلمية ، أن تكوين الجسم الانساني كفيل بأن يجعل معدل العمر الطبيعي للانسان ، مائة وخمسين عاما .. ولكنه لا يعيش نصف هذه المدة ، لاسيما في جيلنا الحاضر . وقد كانت الرغبة في الحياة ، حافزا للانسان – في مختلف العصور – على العمل على اطالة أمد بقائه فيها .. وقدر للعلماء الروس أن يقوموا في هذا المجال بجهود وبحوث تعد من قبيل المغامرات العلمية ، اذ انها حققت انقلابات علمية ، ومعجزات طبية عملية . ولعل أبرز ما وفقوا اليه في هذا الجهاد ، هو توصلهم الى رد الحياة الى بعض الموتى ، والى رد البصر الى العميان ، والى تجديد الشباب في الاجساد التي دبت اليها الشيخوخة

وهذا الكتاب – الذي نقدم لك فيما يلي تلخيصا وافيـا مبسطا له – يعطيك فكرة واضحة عن محاولات العلم لاطالة الحياة وتجديد الشباب ، بصورة يسهل عليك فهمها ولو لم تكن ذا ثقافة علمية أو طبية . وهو – من ناحية أخرى – صورة طيبة للعقلية العلمية الحديثة ، واتجاهاتها في التفكير والبحث .. وهي اتجاهات يهم الباحثين عندنا ان يلموا بها وان يمحصوها

حجر الفلاسفة والبحث العلمي

• ان اطالة الحياة حلم يراود الانسان منذ بدء الخليقة ، وحولها نسجت عشرات القصص والاساطير ، ومن أجلها حبس رجال «علم الصنعة» أنفسهم – في العصور الوسطى – الى جوار أنابيقهم وأجهزتهم الغريبة ، سعيا وراء « حجر الفلاسفة » ، تلك المادة السحرية التي حلموا بأنها تحول المعادن الرخيصة الى ذهب ، وتضفي على الانسان شبابا أبديا . وقد تطورت العقول ، وتحور المنطق ، ومع ذلك فان الناس لايزالون يعملون لتحقيق هذه الامنية ، وان قامت محاولاتهم في العصر الحديث ، على أسس علمية .

وسنة الطبيعة هي أن ينمو الانسان ، ويهرم ، ثم يموت

كغيره من كل الاحياء .. بل ان بعض خلايا الجسم البشرى تموت ويظهر غيرها - من نوعها - عدة مرات فى حياة الانسان. ومن المعروف أن نحو ٣٠٠ أو ٤٠٠ بليون من كريات الدم الحمراء تتحلل - فى جسم الفرد - وتتلاشى ، بينما تولد كريات أخرى بديلة لها . وعلى هذا النسق تتجدد كذلك خلايا الكلى والكبد والامعاء وغيرها . وفى بعض الاعضاء تتم عملية التجدد بسرعة ، فى حين أنها تتم فى بعض آخر ببطء ، ولا تتجدد اطلاقا فى بعض ثالث .. ومن أمثلة هذا النوع الاخير ، خلايا المخ التى يجوز أن تنقص بسبب الاصابات والامراض ، ولكنها لا يمكن أن تزيد .. هذا فى الوقت الذى نجد فيه أن بلايين الخلايا تموت اذا ما تسلخت البشرة ، فلا يلبث غيرها أن يظهر من جديد

وليس من السهل معرفة العمر الذى يجب أن يعيشه الانسان فعلا . فمن الناس من يتجاوزون المائة ، ومنهم من يموتون فى سن الطفولة ، سواء فى ذلك الغنى والفقير . وكل ما استطاعه رجال الاحصاء هو تقدير متوسط العمر بالعمليات الحسابية لكل من يموتون . وقد تبين من هذه الاحصاءات ، ان متوسط العمر يطول كلما تقدمت وسائل وقاية الصحة ، وعلاج الامراض ، وازالة العلل الاجتماعية والنفسية . ولكن بعض المفكرين يرون أن اطالة العمر بالوقاية ومنع الحروب والاوبئة ، قد تؤدى الى انحلال البشرية وزيادة الاحياء عن طاقة الارض ، اذ أن أسباب الوقاية تتنافى مع مبدأ البقاء للأصلح ، وهو أهم عوامل تقدم البشرية

وتعنى بعض الدول باحصاء المعمرين فيها ممن تتجاوز أعمارهم المائة عام . وعلى ضوء هذه الاحصاءات ، نجد أن متوسط من يتجاوزون المائة فى روسيا ٧٠٠٠ فرد ، وفى بلغاريا ١٥٨ ، وفى ألمانيا ٨٦ ، وفى السويد ٥٨ ، وفى ايطاليا ٥١ ، وفى النرويج ٣٥ . ولعل «خبارأنوت» الروسى - الذى

توفى فى سنة ١٩٣٦ — هو صاحب الرقم القياسى فى طول الحياة فى هذا العصر ، اذ انه عاش ١٥٥ سنة .

عمرنا الطبيعى ١٥٠ سنة

• **ومن** الاسئلة التى تحير العلماء : مدى العمر الطبيعى للانسان . فكم يجب أن يعيش الانسان وفقا لسنن الطبيعة ؟

ولقد حاول العالم الفرنسى « بفون » أن يجيب عن هذا السؤال ، فدرس الحيوانات المنزلية وفترة اكتمال نمو عظامها ، فوجد أن هذه الفترة لدى الكلاب سنتان ، ولدى القطط ١٨ شهرا ، ولدى البقر ٤ سنوات ، والخيل ٥ سنوات ، والجمال ٨ سنوات .. وهى تعيش ستة أمثال فترة النمو هذه . أما عند الانسان ، فتقدر فترة نمو العظام بنحو ٢٥ سنة . **وعلى هذا السياق يجب أن يكون العمر الطبيعى للانسان ١٥٠ سنة .. أى ستة أمثال فترة نمو عظامه !**

ولقد جاء بعد « بفون » عدة علماء آخرين وابتكر كل منهم طريقة لحساب طول هذه الحياة ، فكانت كل نتائجهم تلتقى عند هذا الرقم الذى يندر أن يعيشه فرد ، اذ انه فى الغالب لايصل الى منتصفه . ويعلل بعض الخبراء النفسيين شدة تعلق الانسان بالحياة الى هذا النقص ، ولو انه عاش عمره بأكمله — أى ١٥٠ سنة — لاستقبل الموت بغير اكتراث . وهنا يهاجم الذهن سؤال عويص : **لماذا لا يعيش الانسان هذه الفترة حتى لو توفرت الظروف الملائمة ؟ وما هو سبب هذا الموت المبكر عند الانسان ؟**

ويموت الانسان عندما تموت خلاياه ، لاسيما خلايا المراكز العصبية والاعضاء الهامة . واذا ماشئنا مزيدا من الدقة ، فان بعض خلايا الجسم البشرى تظل حية بعد وفاة صاحبها ، كخلايا الشعر والاظافر . وقد سجلت هذه الظاهرة فى معمل العالم الروسى « كرفكوف » ، فكانت الاصابع تفصل من جثث

الموتى ، ومع ذلك فان الاظافر كانت تواصل نموها نحو أسبوع أو أكثر . وكذلك الشعر الذى كان يتغذى بسائل يشبه الدم . **على ان الخلايا البطيئة فى موتها ، هى الخلايا ذات القيمة الثانوية للانسان ، لسوء الحظ . أما الخلايا القيمة الهامة — وهى خلايا الجهاز العصبى المركزى والاعضاء الداخلية كالكبد والكلى — فانها تموت بسرعة .**

ولكى تعيش الخلية وتتجدد ، يجب أن تظفر بغذائها العادى . أما اذا ما اضطربت تغذيتها ، فان نشاطها يضعف ، وتنتابها أعراض مرضية قد تؤدى الى تدمير مجموعة منها . ثم تسرى عدوى الانحلال فى بقية الخلايا والاعضاء . واذا ما حدث انحلال فى عضو ، فانه يؤثر على بقية الاعضاء ، وبالتالى على الكائن الحى كله ، اذ انه يعد وحدة متكاملة ، ينظم وظائف أعضائها الجهاز العصبى

خلايا « خشنة » وخلايا « نبيلة »

• **ولقد** أثارت مسائل اطالة العمر وأسباب الوفاة ، اهتمام العالم الروسى « متشنيكوف » ، فوجه جل اهتمامه الى المخ وهو أكثر أجزاء الجسم تعقيدا . ولقد عكف على فحص قطاعاته بدقة متناهية — تحت الميكروسكوب — فكان كل شىء فى تكوينه يبدو له عاديا مألوفا : مجموعات الخلايا العصبية ، وأطرافها المختلفة المتشعبة ، تتحللها طبقات من خلايا الانسجة الموصلة . ولاحظ العالم أن الخلايا العصبية كانت كثيرة — فى بعض الحالات — فى حين أن الانسجة الموصلة كانت قليلة .. وفى حالات أخرى كان يلاحظ العكس: أى قلة الخلايا العصبية ، وزيادة الخلايا الموصلة .

ولم تكن هذه الصورة جديدة على العلماء المتوفرين على دراسة المخ ، فكلهم يعرفون هذه التفصيلات وأكثر منها . **ولكن « متشنيكوف » كان يرمى من دراساته الى معرفة عمر**

الانسان من دراسة خلايا المخ . فكلما زاد عمر الشخص زاد عدد خلايا الانسجة الموصلة ، وقل عدد الخلايا العصبية .
وقد بدا لذلك العالم أن شيخوخة الانسان تؤدى الى أن بعض الانسجة « الخشنة » تحتل أمكنة أنسجة المخ « النبيلة » .. و « الخشنة » هو الاسم الذى أطلقه « متشنيكوف » على الخلايا الموصلة ، فى حين أطلق على الخلايا العصبية أسم « النبيلة » !

كذلك درس « متشنيكوف » خلايا الكبد والطحال والشرايين والقلب وغيرها على هذا الضوء ، فالتقى بالظاهرة عينها ، وأستنتج أن : **نقص عدد خلايا المخ « النبيلة » ـ وبالتالى زيادة الخلايا « الخشنة » ـ يضعف مراكز الاعصاب ، ويحدث ضعف الذاكرة والمواهب العقلية ، كما يصيب القلب والاعضاء الداخلية بالوهن ، فتظهر على الكائن الحى علامات الشيخوخة !**

وقدرة خلايا الانسجة الموصلة على النمو ، تتفق مع الدور الذى تلعبه فى الكائن الحى . فعندما تظهر ندبة من أثر جرح ، تعمد الخلايا الموصلة الى النمو بكثرة لتضم طرفى الجرح . وعندما يصاب انسان بمرض السل ، فان جزءا من رئتيه يصاب بتدمير ، فتظهر فيه ندبة من خلايا الانسجة الموصلة القادرة على التكاثر باعداد كبيرة . واذا ما أصيبت خلايا المخ والكبد وغيرها من الاعضاء الهامة بضعف ، أو فقدت حيويتها وقدرتها على المقاومة ، فان الخلايا الموصلة تتكاثر بقوة لتحتل مكان تلك الخلايا الضعيفة .

وقد رأى « متشنيكوف » أن هذا التبدل هو سبب الشيخوخة وما يتبعها من انتهاء الحياة

الامتناع عن التدخين والخمر يطيل العمر

● **ولا ريب** فى أن تصلب الاوعية الدموية ـ الذى يحدث

بسبب الافراط فى الجهد، ويحرم الاوعية من مرونتها ــ وكذلك الامراض المعدية ، وتعاطى المواد الكحولية ، والغذاء غير الصحى والتدخين .. لاريب فى أن هذه كلها من أهم العوامل التى تؤدى الى ظهور الشيخوخة . **ولتجنبها نادى « متشنيكوف » بممارسة الالعاب الرياضية ، واتباع الوسائل الصحية لمنع الامراض المجهدة . كما أوصى بوجوب تعقيم كل الوان الطعام حتى لاتنقل الميكروبات الضارة الى الجسم . وحرم التدخين ، وتعاطى المواد الكحولية . وأفتى بأن اتباع مثل هذا النظام يتيح للخلايا « النبيلة » فى المخ فرصة الاستقرار والاحتفاظ بقوة مقاومتها ، مما ينقذها من براثن الخلايا « الخشنة » !**

ولقد كان العلم يرى أن مستعمرات الميكروبات ــ التى توجد باستمرار فى الامعاء الغليظة ــ مفيدة ، بزعم أنها تسبب تحلل بقايا الطعام الذى نأكله . ولكن « متشنيكوف » رأى أن هذه الميكروبات أكبر خطر يهدد الخلايا « النبيلة » للمخ ، لان منتجات التحلل تتسرب الى الدم ، وتصل الى المخ والاعضاء الهامة فتضعفها تدريجا . ولهذا كان من أكبر الدعاة لتناول اللبن الزبادي كغذاء مفيد . وقد عزا اليه طول أعمار البلغاريين ، اذ يعيش بعضهم أكثر من مائة سنة . وذلك راجع الى أن اللبن الزبادى يحتوى على حامض « اللبنيك » الذى يمنع « بكتريا » الامعاء من التكاثر . وبهذه المبادىء ــ الصحيحة فى جوهرها ــ حاول « متشنيكوف » ان يعلن الحرب على الشيخوخة ، ولكن كل آرائه فشلت فى بيان أسبابها الحقيقية

تجديد الشباب بغدد القردة

• **وفى** أوائل القرن العشرين ، عرف العالم أول تقرير عن التجارب التى اجراها الدكتور « فورونوف » لنقل غدد

الحيوانات واستخدامها كوسيلة لاعادة الشباب الى الانسان. ولكن أطباء باريس - حيث كان « فورونوف » يعمل - استقبلوها بالاستهجان ، فلم يفت هذا فى عضده ، بل واصل جهوده . وان هى الا ثمانى سنوات ، حتى اتجهت الانظار جميعا اليه .. ففى عام ١٩١٢ استقبل الدكتور « فورونوف » فى عيادته بباريس ، شخصا من أبناء جزيرة (صقلية) ، أصطحب أبنا له ، تدل كل مظاهره على أنه أبله ، اذ أن غدته الدرقية - فى الرقبة - كانت ضامرة ، لاتكاد تبدو .. وهى - كما تعرف - تفرز هرمونا يسبب النمو العقلى والجسمانى (راجع تلخيص كتاب «جسمك» فى العدد ٧٣ من « كتابى »)

وكان أطباء باريس قد أجمعوا على أن علاج بلاهة الطفل مستحيل ، فليس من سبيل الى دفع هذه الغدة الى النمو وأداء وظيفتها . ولكن الدكتور « فورونوف » قرر أن يجرب مع هذا الطفل ماكان قد جربه - من قبل - على الحيوانات ، فيستنبت فى رقبته غدة بدل الغدة الناقصة . ولكنه اصطدم بعقبة جوهرية : كيف يحصل على مثل هذه الغدة ؟

وهداه التفكير أخيراً الى أن يستأصل الغدة الدرقية من أحد القردة ، ويستنبتها فى رقبة الغلام . وأقدم على التجربة ، فما لبث الغلام أن استأنف - بعد فترة - نموه وذكاءه . ولم تمر سنة ، حتى كان تلميذا باحدى المدارس العادية ، واختفت من وجهه كل أمارات البلاهة ، فلم يعد يختلف عن أى تلميذ آخر .

وفى الجسم عدد من الغدد المنتجة للهرمونات الضرورية للجسم . وقد لفتت الغدد الجنسية منها نظر « فورونوف » ، اذ رأى أن تناقص نشاطها بمرور السنين ، هو السبب فى حلول الشيخوخة . وقد شجعه نجاح التجربة السابقة ، على المضى فى محاولة استنبات شتى الغدد الصماء الاخرى فى الانسان .. وفعلا ، أخذ « فورونوف » يستنبت - فى

الشيوخ الطامعين فى استرداد شبابهم ـ الغدد الجنسية للقردة ، ويتلقى تقاريرهم ، فاذا بها تفيض بالسعادة ، وتشرح ماحل بهم من حيوية ونشاط

ومضى شهران والتقارير البراقة ترد من الشيوخ المتصابين .. وفجأة قدمت رسالة جديدة . ولكنها لم تكن من شيخ ، بل من ابن روى كيف ان اباه الشيخ ـ الذى استرد شبابه ـ قد توفى فجأة ، بسبب نزيف فى المخ . **ودل الفحص على ان هذا الشيخ قد استمتع فعلا بحيوية الشباب وقدرته الجنسية ، بفضل خصيتى قرد اضيفتا الى جسمه .. ولكنه صار شابا فى قدرته الجنسية ، وان ظل شيخا من حيث قلبه الضعيف وأوعيته الدموية المتصلبة التى لم تحتمل حيوية الشباب ، فانهارت تحت ضغط الارهاق الزائد عن قدرتها** . وظهر بوضوح أن تجديد الشباب باستنبات الغدد الجنسية للقرود فى الانسان ، عملية فاشلة ومدمرة ، لان النشاط لايكون متكافئا فى جميع أعضاء الجسم وأجهزته !

السعادة والمرح يطيلان العمر

• **على أن** عالما روسيا آخر ، هو « بوجوموليتز » ، وجه اهتمامه الى دراسة مسألة خلايا الانسجة الموصلة ، فخرج من دراساته بنتائج تناقض تلك التى وصل اليها «متشنيكوف» ، اذ تبين أن هذه الغدد « الخشنة » ليست عدوة للخلايا « النبيلة » ، بل ان لها وظائف هامة ، منها نقل الغذاء الى الخلايا ، وافراز نوع من الخمائر المذيبة للخلايا الشاذة التى يحتمل أن تكون سرطانا .. كما انها مخزن كبير للخلايا التى تلتهم الميكروبات ، فضلا عن انها تمنع الاجسام الغريبة من الوصول الى الخلايا الحيوية ، ومن ثم فان أداء الخلايا الموصلة لوظائفها بطريقة منتظمة ، يمكن الخلايا الاخرى من أن تؤدى

واجبها . أما اذا أصيبت الخلايا الموصلة بعلة ، فان الخلايا « النبيلة » تعتل هى الاخرى . ومعنى هذا ان سلامة الخلايا الموصلة ، عامل أساسى لسلامة الخلايا « النبيلة » ، وبالتالى لسلامة الجسم ، وطول حياة الكائن .

وهكذا عالج « بوجوموليتز » أخطاء سلفه « متشنيكوف »، وبدلا من أن يبحث عن وسيلة لتقوية الخلايا « النبيلة » واضعاف الخلايا الموصلة ، فانه واصل بحوثه لتقوية الخلايا الموصلة . وعلى ضوء هذا الاتجاه ، انتج عقارا خاصا ثبت انه مفيد للغاية فى علاج الجروح وبعض الامراض ، ولكن آماله فى اطالة الحياة لم تتحقق !

وما لبثت تجارب الدكتورة « ماريا بتروفا » ان كشفت عن خطأ آخر ، هو تجاهل « متشنيكوف » و «بوجوموليتز» للدور الذى يلعبه المخ ــ ولا سيما غشاؤه المسمى « كورتيكس » ــ فى التأثير على الحياة . فقد ظلت تجرى تجاربها على الجهاز العصبى نحو ٣٠ سنة . ومن هذه التجارب انها احضرت عددا من الكلاب السليمة النشطة ، وأسكنتها فى بيئة تبعث التوتر العصبى ، فسرعان مافقدت الكلاب رغبتها فى النشاط ، وبدا عليها الخمول والبلادة ، ثم ظهرت علامات الشيخوخة المبكرة على أعضائها الداخلية وعلى حركتها ، ونفقت وهى فى حوالى الثالثة عشرة من العمر ، بينما عاشت زميلاتها فى صحة جيدة حتى العشرين أو أكثر .. اذ جربت « بتروفا » اثر البيئة الباعثة على الغبطة والارتياح على مجموعة من الكلاب الهزيلة ، فاذا بهذه الكلاب تبلغ العشرين من عمرها ، وهى تبدو فى سن العاشرة .

واتضح من التجارب أن المخ ينظم جميع العمليات الحيوية التى تتم داخل الجسم ، وهو الذى يقويها أو يضعفها . ومن هنا أستنتجت « بتروفا » أن الجهاز العصبى يتحكم الى حد كبير فى مسألة ظهور الشيخوخة . ويظهر هذا التأثير بوضوح

فى حالة المرض العقلى المعروف باسم « الشيزوفرانيا » (انقسام الشخصية أو تجاهل الواقع) ، اذ يبدو المريض متعبا منهوك القوى ، لايأبه لاى شىء ، وتتجلى التعاسة على أسارير وجهه ، ثم لاتلبث الشيخوخة المبكرة أن تداهمه .

وقد ألقت دراسات « بتروفا » كثيرا من الضوء على المستحضر أو الاكسير الذى أعده « بوجومولیتز » ، اذ لوحظ أنه يؤدى الى تحسن كبير فى حالات « الشيزوفرانيا » . ولكن تأثيره هذا لم يكن ناشئا عن مفعوله فى خلايا الانسجة الموصلة — كما ظن « بوجومولیتز » — وانما كان ناشئا عن تأثيره على غشاء المخ . اذ أن من وظائف هذا الغشاء حالات الاثارة والكبت . وهى من أهم عوامل الشيخوخة !

بالعمل تستطيع أن تهزم الشيخوخة

• **ويبدو** أن الكفاح من أجل اطالة الحياة ، يجب أن يبدأ قبل أن تدب الشيخوخة فى الجسم ، وقبل أن يفقد حيويته . وفى هذا السبيل أجريت مئات التجارب ، وقدمت عشرات الاراء ، ولكنها لم تفض الى نتيجة حاسمة لان المشكلة أعقد مما نتخيل ، وان كنا قد ظفرنا ببعض المذاهب والآراء التى لاجدال فى فائدتها لدفع شبح الشيخوخة . **ومن هذه الآراء العمل ! .. فلا بد من أن تعمل جميع أعضاء الجسم وان تؤدى وظائفها ، دون أن نهمل أى عضو منها . ومن ثم فلا يجوز للفرد أن يتقاعد عن العمل فى سن مبكرة . كما انه لا يجوز للمرء أن يفرط فى العمل الى حد الارهاق ، لان هذا الارهاق من عوامل ظهور الشيخوخة المبكرة !**

ولعل ممارسة الالعاب الرياضية من أهم عمليات صيانة الشباب . وهى ضرورية لاغنى عنها للمشتغلين بالاعمال الذهنية . اذ أن من أهم مايلزمهم — لتعويض مايطرأ عليهم من جراء عدم اتاحة الحركة الكافية لاعضائهم — أن يمارسوا

عمليات عضلية تنشط الدورة الدموية فى أجسامهم ، وتقدم مزيدا من الاكسوجين للخلايا الموصلة . ويقول بعض الخبراء ان اهمال هذا ، يعجل بقدوم الشيخوخة فى سن الخامسة والاربعين .

ومن عوامل صيانة الشباب أيضا ، تزويد الجسم بالغذاء الصحى الشامل لجميع المواد الضرورية ، فان الطعام الفقير فى مواده ، يؤدى الى اضطراب الامعاء ، وتسلل مواد التخمير والتحلل من الامعاء الى الخلايا ، مما يضر بها .

ومن الاغذية الهامة التى تمتص الخمائر ومواد التحليل اللبن الزبادى واللبن الرايب . وقد يحتاج الجسم الى قليل من اللحم ، ولكن ألاكثار منه مضر

والنظافة هامة ، فبفضلها تظل مسام الجلد مفتوحة ، ويتيسر للفضلات المتخلفة فى الجسم أن تغادره بسهولة خلالها .

واذا ما أضفنا الى هذه العوامل راحة البال ، والبعد عن كل ما يثير الانفعالات الضارة ، فان الفرد يحس بالسعادة ، وبالتالى يحتفظ بشبابه فترة طويلة .. والى جوار توفير البيئة الملائمة لايجاد فرص السعادة ، يجب أن لانهمل الفحص الطبى الشامل لكل أعضاء الجسم ، فنذهب الى العيادات الطبية كل فترة من الزمن ، لفحص أعضائه ووقايته مما قد يطرأ عليه من خلل قد لايشعر به المرء ، ولكن الفحص ينم عنه ويتيح علاج العلة قبل أن تستفحل

أعضاء تعيش بعد موت أصحابها !

• **ولقد** كشفت تجارب الباحثين الروس ، عن أن أنواعا من أنسجة الجسم الحى يمكن أن تعيش مدة أطول من عمر الكائن الحى نفسه . ففى كثير من التجارب كان الباحثون يفصلون بعض الانسجة من جنين « كتكوت » ، ويضعونها فى

وسط يغذيها ، فكانوا يجدون أنها تواصل الحياة ، فتنقسم خلاياها وتتجدد ، ولا تحتاج الا لتغيير غذائها فى فترات معينة

ومن الباحثين الممتازين فى دراسة تأثير العقاقير على الانسان والانسجة المفصولة من الاحياء ، الدكتور « كرافكوف ». ومن تجاربه انه مرر احد المحاليل فى الاوعية الدموية لاصبع فى جثة، ثم بتر الاصبع، وتلقى المحلول عند انسيابه منها وحلله، فوجد فيه موادا جديدة . وكان من الواضح أن هذا المحلول أدى بعض وظيفة الدم ، وزود خلايا الاصبع بالمواد المغذية لها . فلما تمت عملية الاحتراق الغذائى ، لفظت الاصبع الفضلات كما يفعل كل كائن حى . وهذا دليل على أن مافى الاصبع من الانسجة الموصلة ظلت حية بعد موت صاحبها .

وقد أجريت تجارب مماثلة على غدة درقية مفصولة عن جثة ، ولما حلل الباحث افرازاتها ، وجد فيها « هرمون » هذه الغدة ، مما دل على أن انفصالها لم يمنعها من أداء وظيفتها . **وقد استخرج الدكتور « كوليابكو » — فى احدى تجاربه — قلب أحد الموتى ، ثم وصله بجهاز من أنابيب الزجاج والمطاط المتصلة بمحرك كهربائى دفع فى الانابيب وفى القلب محلولا منشطا ومغذيا ، فلم تمض لحظات حتى بدأ القلب ينبض من جديد** .. وفى تجربة أخرى فصل جراحان من (موسكو) رأس كلب ، ووصلا أوعيته الدموية بأنابيب تزودها بالمواد الغذائية ، فعاش الرأس فترة ، وكان يفتح عينيه ويغمضهما اذا تعرضتا للضوء ، كما كان لسانه يلعق المواد اللاذعة اذا وضعت على شفتيه. ومن مثل هذه التجارب ثبت أن المخيخ يؤدى وظائفه فترة من الزمن ، بعد أن تتوقف الحياة وكل علاماتها فى الجسد !

متى يمكن رد الحياة للجسم الميت !

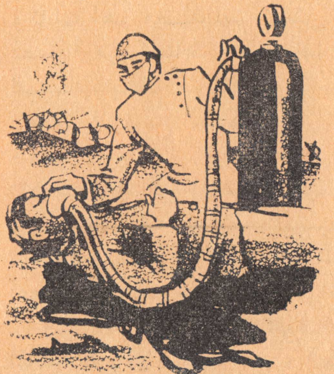
• **ومن** هذه التجارب وغيرها ، ثبت أن الموت لا يسرى فى

كل أعضاء الكائن دفعة واحدة ، بل ان بعض هـذه الاعضـاء يعيش لفترات متفاوتة ، بعد اختفاء علامات الحياة . والموت هو توقف جميع الوظائف - ومنها التغذية - عن أداء عملها ، مما يؤدى الى حرمان الخليـة من طعامهـا .. وبمعنى آخر : هـو توقف الجهاز الذى يحلل المواد البروتينبـة والغـذائية ويهضمهـا ، ثم يقدمهـا للخليـة .. **ومن ثم فان التـوقف الغذائى حالة تسبق حالة الانحلال التى لاسبيل الى علاجها .**

والخلايا تختلف من حيث القـدرة على البقاء ، باختـلاف تركيبها . ومن هنا نجـد أن بعضها يعيش فترة طويلة بعـد وفاة الجسم - كخلايا الشعر والاظافر والجلد - فى حين أن خلايا المخ ، وخاصة خلايا غشائه ، سريعـة العطب . وقـد أثبتت تجارب العالم « كوليابكو » ان عوامل الانحـلال تدب فيها بعد مضى خمس أو ست دقائق من اختفاء علامات الحياة من الكائن ، فى حين أن خلايا القلب تستطيع مقاومة الانحلال نحو ٢٤ ساعة . ولخلايا المخ أهميتها البالغة بالنسبة للكائن الحى اذ انها هى المسيطرة والحاكمة لشتى الوظائف الحيوية للجسم

ووفقا لهذه الدراسة ، يمكن تقسيم الموت الى مرحلتين : مرحلة ظاهرية تختفى فيها علامات الحياة - من نبض القلب والتنفس - فيتوقف القلب والرئتان عن عملها ، فيتوقف - بالتالى - وصول الغذاء الى خلايا الجسم ، ومنها المخ . وحد هذه المرحلة هو خمس أو ست دقائق تبـدأ بعدها خـلايا المخ فى التحلل . **وفى هذه الفترة القصيرة يمـكن اعادة الحيـاة الى المريض بتنشيط القلب وتشغيله سـواء بالعقـاقير الطبية - كالكافور والكافايين والادرينالين - أو بالتدليك اليدوى للقلب ، فيشق الجراح فى الصدر منفذا يصل منه الى القلب ويدلكه بيده .**

ويشترط لاعادة الحياة فى هـذه المرحلة أن تكون جميـع



الاعضاء الداخلية للجسم ـ كالكبد والرئة ـ سليمة لم تتلفها الامراض المزمنة وعوامل التحلل . ومثل هذه الحالة تتوفر فى الموت المبكر ، كذلك الذى ينجم عن الحوادث والقتل ، والصدمات الجراحية، اذ أن توقف القلب ـ فى كثير منها ـ يكون نذيرا بحدوث الموت الظاهرى، الذى يسمى فى هذه المرحلة بالموت «الاكلينيكى» .. واستمرار هذا الموت يؤدى الى المرحلة الثانية ، وهى تحلل خلايا المخ ، فيستحيل ـ تبعا لمعلوماتنا ـ اعادتها الى اداء وظيفتها واصدار تعليماتها الى بقية أعضاء الجسم ، فلا تلبث هذه أن تستسلم ـ بدورها ـ لعوامل الانحلال ، ويصير الموت نهائيا أى « حيويا » .

وقد أمضى العالم الروسى « نجوفسكى » سنوات طويلة وهو يدرس مسألة الموت المبكر على الحيوانات ، حتى عرف كيف يجعل الحيوانات النافقة تستأنف الحياة بعد دقائق من توقف قلوبها وتنفسها . ولما قدمت الحرب العالمية الثانية ، وانتشرت كوارثها فى الاراضى الروسية ، وجد فى ضحاياها ـ من الآدميين ـ حقلا خصيبا لتطبيق معلوماته على الانسان ، فاستطاع أن يعيد الحياة الى عشرات الجنود بعد أن قرر جراحو الجيش انتهاء حياتهم !

الحياة .. فى انبوبة ومنفاخ

• **ونظرا** لقصر فترة الموت الظاهرى، كان على «نجوفسكى» ومساعديه أن يعملوا فى سرعة ، وفى الخطوط الامامية للقتال .

وكانت أهم معداتهم تتمثل فى حقيبة صغيرة ، بها أنبوبة قصيرة من المطاط ، يوصلها أحد المساعدين بالقصبة الهوائية للمصاب بحالة الوفاة . وبوساطة منفاخ أعد خصيصا لهذه العملية ، يدفع الهواء الغنى بالاكسوجين الى رئتى « الميت » خلال الانبوبة ، وبينما يجرى هذا التنفس الصناعى ، ينقل دم جديد الى المصاب ليعوضه عما فقد بسبب جراحه . وبهذه الطريقة العاجلة البسيطة ، يستأنف القلب عمله فى ثوان معدودة بعد الوفاة ، فيدفع الدم الى خلايا المخ وغيره من أعضاء الجسم لتستأنف حياتها .. وحياة المصاب أيضا !

وفى كثير من حالات الوفاة الظاهرية لوحظت حاجة المصاب الماسة الى الاكسوجين ، فخلطت مواده بالدم المنقول الى جسمه .. وكانت حالة كل مصاب وطبيعة علته تراعيان فى تقرير أنواع العلاج والعناية اللازمة له . وبهذه الطريقة تمكن « نجوفسكى » وزملاؤه من اعادة الحياة الى ٤٤ جنديا ، بعد أن كان كل أمل فى استئنافهم الحياة قد تلاشى . كذلك استخدمت هذه الوسائل فى حالة الاحتضار ـ السابقة على الوفاة ـ فأسفرت عن نتائج طيبة . وهى تستخدم الآن فى كثير من حالات الموت الناشىء عن الحوادث وما اليها

ومن الواضح أن مسألة الوقت هى أهم عامل يعرقل انقاذ حياة آلاف الناس ممن يقضون نحبهم كل يوم فى الحوادث الطارئة .. **اذ يتعذر معها اجراء عملية التنفس الصناعى ونقل الدم وغيرها من الاسعافات الطبية ، فى مدة تقل عن ست دقائق .. أى قبل أن يبدأ الانحلال فى خلايا الغشاء المخى .**

وكان من الطبيعى أن يتساءل الباحثون عن سبب اختلاف طبيعة هذه الخلايا عن سواها من خلايا الجسم ، فلماذا يبدأ الانحلال سريعا فى خلايا المراكز العصبية ؟

ولقد أدى هذا التساؤل الى دراسة عملية التنفس من جديد ، فاكتشف الباحثون عدة حقائق هامة : فالتنفس

لايتوقف فجأة فى لحظة الوفاة ، وانما هو يمر بعـدة مراحل متتالية .. اذ يرتبك أولا ، ثم يتحول الى شهقات ، تتحـول بدورها الى نوع من التشنجات والاختلاجات ، التى تليها انات متباعدة .. ثم يتوقف التجويف الصدرى عن كل حركة ، فى النهاية . وقد درس التفسير العلمى لهذه المراحل ، فظهر أن الخلية الحية النشطة ـ فى غشاء المخ ـ تحدث تيارا كهربائيا يمكن التقاطه وتسجيله بآلات خاصة . فاذا ماحدثت الوفاة، أصيبت أجهـزة التنفس بالشـلل ، فان الآلات تتـوقف عن تسجيل هذه التيارات الـكهربائية ، دلالة على توقف خـلايا الغشاء المخى عن أداء عملها فى تنظيم حركة التنفس. **وفى هذه اللحظة بالذات يبدأ التنفس المضطرب ، مما يدل على أن خلايا أخرى تحاول استئنافه .**

وفى هذه المرحلة من ارتباك التنفس ، تستمر حدقة العين فى التأثر والاستجابة للضوء ، مما يؤكد أن المنطقة التى تصدر الاوامر من المخ الى الحدقة ، لاتزال نشـطة ، وهـذه المنطقة تحت الغشاء المخى . فاذا ما توقفت حدقةالعين عن التـأثر بالضوء ، كان هـذا دليـلا على توقف هـذه المنطقة عن أداء عملها . وفى هذه الحالة أيضا لايتوقف التنفس ، وانما يتحول الى شهقات متقطعة تشاهد فى ظاهرة النزع ـ أى الصراع مع الموت ـ وتدل على ان بعض خلايات الجهاز العصبى المسيطرة على التنفس لاتزال تؤدى وظيفتها ، وهى فى النخاع المستطيل. ولا تتوقف حركة التنفس الصـدرى ، الا اذا ماتوقفت هذه الخلايا

الارهاق العضلى والذهنى يقصر العمر !

• **ولقد** دلت البحوث والدراسـات المختلفـة على ان بدء الانحلال فى خلايا المخ ، يتم بعد مرور فترات تختلف باختلاف أماكن هذه الخلايا . فهو يدب فى النخاع المستطيل بعد ثلاثين

دقيقة من زوال علامات الحياة من الكائن ، وتقل هذه الفترة الى نحو عشر دقائق بالنسبة للخلايا القريبة من الغشاء المخى، والى ست دقائق بالنسبة لخلايا الغشاء ذاته

وظهر أيضا أن مراكز التنفس فى المخ ، نمت بطريقة معقدة فى الاحياء الثديية المتقدمة فى مضمار التطور والارتقاء .. أى انها حديثة العهد ـ بالنسبة للتطور ـ فلم تظفر بعد بالصلابة وقوة المقاومة اللتين اكتسبتهما الخلايا الاخرى التى سبقتها فى الظهور . وهى ـ بسبب حداثتها هذه ـ شديدة الحساسية وسريعة التأثر ، وضعيفة الاحتمال . ومن الجائز أن تزداد متانة وقوة ـ من وجهة النظر العلمية ـ بعد ملايين قليلة من السنين فى حياة البشرية ، وعندئذ تستطيع مقاومة الموت الحيوى مدة أطول

والانسان بطبيعته يحاول التغلب على كل مايعترضه من عقبات ، لاسيما تلك التى تتعلق بالحياة . ومن ثم فانه لن ينتظر عمل الطبيعة وتطور الخلايا فى حل هذه المشكلة . بل لقد بدأ العلماء يبحثون عن وسائل أخرى لزيادة مقاومة الخلايا للموت الحيوى ، واطالة فترة الموت الظاهرى . ومن هذه الوسائل استخدام البنج . فقد أسفرت التجارب عن أن من الممكن اطالة فترة الوفاة الظاهرية عن مداها العادى بفعل « البنج » .

ويعتقد الباحثون الروس ان تخدير المصابين بالبنج وهم فى سكرات الموت الاخيرة ، يؤدى الى اطالة فترة الوفاة الظاهرية، ويتيح فرصة أطول ، لاجراء الاسعافات اللازمة لاعادة الحياة وتشغيل القلب والتنفس .

ومن الواضح أن خلايا الغشاء المخى هى أكثر الخلايا حساسية فى الجهاز العصبى ، فهى سريعة العطب . وعلى العكس منها خلايا النخاع المستطيل ، التى تعد أقل الخلايا تأثرا . وقد لوحظ فى حالات اعادة الحياة ، ان النشاط يدب

أولا فى جميع خلايا المخ ، كمقدمة لسريانه فى خلايا الغشاء . ويعلل الباحثون هذه الظاهرة بأن خلايا الغشاء المخى القليلة الاحتمال تحاول وقاية نفسها .. فاذا ما أحست بالخطر توقفت عن اداء وظيفتها لتستطيع أن تعيش أطول فترة ممكنة ، ثم تعود الى اداء عملها عندما تعود كل الخلايا الاخرى الى اداء عملها ، مما يبعد عنها خطر الارهاق

ولقد أجريت عدة تجارب على الكلاب والقرقى ، فظهر ان الارهاق العضلى والذهنى يقصر فترة الموت الظاهرى الى دقيقتين أو ثلاث ، مما لايفسح المجال لاعادة الحياة اليهم ، بالدرجة التى ينفسح فيها لدى أولئك الذين لايتعرضون للانفعالات الطويلة الامد التى ترهق المخ ، أو للصراع العضلى المدمر لقوتهم . فان فترة الموت الظاهرى تطول عند هؤلاء الى ست دقائق ، يمكن خلالها اعادتهم الى الحياة . وقد فسرت هذه الظاهرة بأن خلايا غشائهم المخى تحتفظ بقدرتها على المقاومة ، وتتأهب لملاقاة الموت الظاهرى بالكبت الواقى ، أو ــ بعبارة أخرى ــ التوقف عن العمل ، وذلك لان استعدادها يتيح لها مزيدا من المقاومة

عندما تموت أجزاء من المخ

• وفى مجموعة من التجارب البارعة ، درس العالم « أستراتيان » العلاقة بين الدم والمخ والزمن . وقد عمد ــ فى احدى هذه التجارب ــ الى نزح الدم من مخ كلب ، بربط الشرايين المغذية له . وبعد عشرين دقيقة ، أعاد اطلاق الدم ، فعاش الكلب ، ولكنه ظل عاجزا عن الوقوف أو السير ، فكان ــ فى ذلك ــ أشبه بالكلاب التى يزال من رأسها غشاء المخ والمخ المتوسط .

وفى تجربة أخرى ، حبس الدم عن المخ ، لمدة ١٦ دقيقة ، فعاش الكلب أيضا ، وكان يقف ويسير على أقدامه ، ولكنه كان

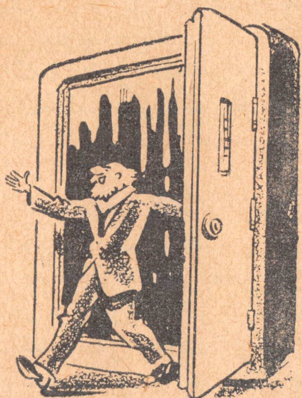
يعجز عن معرفة مكان طعامه ، ولا يستجيب لمن يناديه باسمه . فكان ــ فى ذلك ــ شبيها بالكلاب التى أزيل غشاء مخها .. وفى تجربة ثالثة ، اكتفى بحبس الدم لمدة ست دقائق عن المخ ، ثم اعاده اليه ، فعاد الكلب الى نشاطه الكامل، دون أن يظهر عليه أى تأثر .

ولهذه التجارب أهميتها فى حالات احياء الموتى ، فهى تدل على الفترة التى يمكن أن يحتملها كل جزء من أجزاء المخ ، اذا ماحرم من غذائه ومن تدفق الدم فيه .. وبالاستعانة بها وبغيرها يحاول الخبراء الروسيون اطالة فترة الموت الظاهرى، وتأجيل حدوث الموت الحيوى

ويعتقد بعضهم أن من الممكن اعادة موتى الحوادث الى الحياة بعد ٢٥ أو ٣٠ دقيقة من بدء الموت الظاهرى . ولتحقيق هذه الغاية ، فانهم يقومون بدراسات متشعبة على البنج والتبريد ، محاولين احداث حالة الكبت الواقى لخلايا غشاء المخ بالوسائل الصناعية المدروسة .

والتبريد أو التثليج مسألة يمكن أن ندرك قيمتها ، اذا عرفنا أن الجو البارد ــ فى الثلاجات ــ يحفظ الانسجة والخلايا بشكلها لسنوات طويلة ، دون أن يسرى فيها الانحلال أو التعفن . وقد ظفر الطب بعدد من الحالات التى توفى أصحابها بسبب التعرض للبرد القارس ، فظلوا أياما أو سنوات مغمورين فى الثلج . ولما استخرجت جثثهم ، عجز الخبراء عن معرفة سبب الوفاة وتحديده بدقة . ومن ثم تناثرت النظريات ، فقيل ان الوفاة نجمت عن حدوث شلل فى القلب ، أو تجمد فى الدم ، أو اختلاف التفاعلات الكيمياوية ــ فى الجسم ــ بين أطراف تيبست بفعل البرودة وأخرى ظلت على نشاطها فترة

وعلى هذا الاساس نشأت نظريات تهدف الى اطالة الحياة عن طريق التبريد ، لان كل أنسجة الجسم وخلاياه تحتفظ



بوساطته بقوة بنائها وتماسكها، ولكنها تفقد قدرتها على العمل لسبب ما . وساعد الروس على دراسة هذه المسألة كثرة مناطق الصقيع فى روسيا، حيث يتعرض الناس لتيبس الاعضاء ، مما دعا أطباءهم الى البحث عن أفضل الوسائل لعلاج هذه الحالات الخطرة التى تتوقف فيها الخلايا عن اداء عملها، فلم يكن لها من علاج - فى الغالب - الا ببتر الاعضاء الميتة . وعلى هدى هذه الدراسات وغيرها يحاول الروس أن يعرفوا سر التثليج ، وكيف يمكن استغلاله لاطالة الحياة

البنج وخلايا المخ

• **وأنت** تعرف « البنج » وتأثيره على احساس الفرد. فهو يغلق الطريق الى المراكز العصبية ، أو يخدر هذه المراكز . بحيث انها لاتحس بأن جزءا من الجسم يقطع ، أو يتعرض لمبضع الجراح .

والروس يؤمنون - وفقا لبحوث عالمهم الكبير « بافلوف » - بأن المخ هو الحاكم المسيطر على شتى خلايا الجسم . وهم يحاولون استغلال هذه السلطة - غير المحدودة - عن طريق التحكم فى المخ ذاته ، ليعاونهم على تأجيل الوفاة النهائية فى حالات الموت السابق لاوانه ، وليساعدهم على علاج كثير من العلل والامراض

ولقد وفق العلم الى اكتشاف كثير من مواد التخدير ، التى تتفاوت درجات مفعولها ، فمنها ما يكون له تأثير شامل

يخلف المريض فى نوم عميق طويل، ومنها مايؤثر تأثيرا موضعيا فيظل المريض يقظا ، ولكنه لايحس بمبضع الجراح وهو يشق طريقه فى الجزء المخدر من جسمه. ومن مواد التخدير مايؤثر على المخ نفسه ويدفع خلاياه الى النوم ، ومنها مايضع الحواجز فى الاعصاب ، فتتوقف عن ارسال اشاراتها الى المخ ولا تتلقى أوامره .

ولقد ساهم العلماء الروس بجهود جليلة فى تذليل عقبات استخدام مواد التخدير وآثارها السيئة . ومن التجارب البارعة التى كشفت بعض خواص مواد التخدير ، ما أجراه العالمان « بيزردكا » و « اميل رو » ، ففى هذه التجارب تكشفت بعض حالات أمراض الحساسية التى تحدث للاحياء صدمات وأمراضا قد تقتل بعضهم ، أو تنزل بهم على غير انتظار مجموعة من أعراض مقيتة . ومن أمثلتها حالة الزكام أو البرد التى تصيب بعض الناس اذا أكلوا سمكا أو بيضا ، بعد تعاطيهم مادة السلفا

وفى هذه التجارب ، حقن العالمان أرنبا بمصل مستخرج من جواد ، ليقى من المرض . وكانت كمية المصل أكبر من طاقة الارنب ، فجعلته شديد الحساسية لهذه المادة بالذات . وبعد أيام قليلة أعيد حقن الارنب بنقط قليلة من المصل ذاته، فكانت النتيجة أن أصيب الحيوان بالتقلصات العضلية ، ثم نفق ، ولم يحتمل الجرعة الجديدة . **وأعيدت التجربة ذاتها على أرنب عولج بنفس الطريقة الاولى مما زاد حساسيته ، ولكنه تلقى الجرعة التالية بعد أن حقن بمادة مخدرة ، فلم تتقلص عضلاته فى هذه المرة ، بل ظل فى نومه العميق ، حتى اذا أفاق من تأثير المخدر ، عاش حياته الطبيعية .**

ومن الواضح أن النتيجة اختلفت بفضل التخدير الذى ظفر به الارنب الثانى ، وحرم منه الاول . فان الصدمة التى حلت بالجسم الحساس عندما التقى بالمادة المعادية ــ فى الحالة

الاولى – لم تحدث فى الحالة الثانية ، لان المخدر وقاه منها بطريقة ما . وعلل العلماء الروس ذلك بأن الوقاية نشأت عن تخدير المخ وتوقفه المؤقت عن أداء عمله .

المخ والامراض

• **وقد** أثبت الروس أثر المخ فى هذه الحالات ، بمجموعة من التجارب على القطط والكلاب ، ثم طبقوها فى علاج الانسان . ومنها علاج الدكتور « مولوتكوف » لحالة الالتهاب « الاوذيمى » .. وهو التهاب ينشأ عن تكون مادة سائلة بين الخلايا ، ويؤدى الى انحلال مفاصل أيدى بعض الناس . وقد فشلت فى علاجه شتى الوسائل الطبية ، فلجأ الدكتور « مولوتكوف » الى علاجه بفصل العصب المخى عن الرسغ ، مما أدى الى شفاء هذه الحالات فى ٢٤ ساعة

وفى التجارب المختلفة ، تم احداث هذا المرض بالوسائل الصناعية على القطط – وهى محتفظة بوعيها – ولكن أعراضه لم تظهر عليها وهى تحت تأثير « البنج » . وقيل أن الجلد لم يتفاعل مع المادة التى تؤثر عليه فى العادة بسبب التخدير . وعندما يحقن انسان أو حيوان باللبن ، فان موضع الحقن يلتهب ، وترتفع درجة حرارة المريض . فاذا ما فحصت دمه ، وجدت أن عدد كريات الدم البيضاء قد تضاعف ، لان المخ أصدر أوامره الى الاجهزة التى تعد هذه الكريات ، بأن تفرزها بكثرة ، لمهاجمة المادة الغريبة ووقاية الجسم منها

وكرر العالم « جالكين » هذه التجربة على قطة ، بعد أن وضعها تحت تأثير المخدر ، فظهر ان موضع الحقن لم يلتهب ، ودرجة الحرارة لم ترتفع ، وعندما فحص دم القطة ، وأحصيت كرياته البيضاء ظهر ان عددها عادى ، ولم يزد عن العدد المألوف . وتكررت التجربة مرات فكانت النتيجة واحدة . وعلل السبب بأن المخ كان نائما ، فلم يرسل اشاراته لحشد جنوده من كريات الدم البيضاء للقضاء على المادة الغريبة ،

وما الآلام ،وارتفاع درجة الحرارة الا أدلة وشـواهد للمعركة التى تنشب بين كريات الدم البيضاء والمادة الغريبة

وبهذه التجارب وغيرها عرف « جالكين » تأثير موادالتخدير على المخ ، وكيف يستجيب للعوامل التى تغـزو الجسـم من الخارج ، وانتقل الى دراسـة العوامل التى تؤثر على الجسم من الداخل .. **ومن أهمها الهرمونات** . وقـد اختار هرمون الانسولين الذى يؤدى افرازه فى الدم الى امتصاص الانسجة للمواد السكرية ، وبغيره يصاب الناس بمـرض السـكر لان أنسجتهم لاتستطيع امتصاص السكر (الجلوكوز) . وفحص قطة فى حالتها الطبيعية ، وتبين أن امتصاص أنسجتها للسكر طبيعى ، وأن وجود الانسولين فى دمها يؤدى الى اختفاءالسكر منه ، عندما تكون فى كامل وعيها . ثم أعطاها كميـات كبيرة من السكر ــ بعد فترة ــ واختبر نسبه المتزايدة فى دمها ، ثم وضعها تحت تأثير « البنج » ، وحقنها بهرمون الانسولين .. ولما فحص الدم ــ بعد ذلك ــ وجده يحتوى على نفس نسبه من السكر دون أى اعتبار لوجود الهرمون . ومعنى هذا ان الانسجة لم تستجب للهرمون كما هى العادة ، ولم تمتص مافى الدم من سكر لان « البنج » أوقف ذلك . **واستنتج البـاحث أن تفاعل الانسولين مع الانسجة يعتمد على الجهاز العصبى الذى كان نائما ، فلم يرسل اشاراته لتنفيذ التفاعل العادى**

وكان لهذه التجربة وقع فى الدوائر العلمية . اذ أن المعروف أن الهرمونات من أقوى المواد الكيميائية ، وأن تفاعلها لا يحتاج الى وسطاء أو عوامل مساعدة .. بل ان الجرام الواحد من الانسولين يهبط بمستوى السكر فى دم اثنين وعشرين ألفـا من الارانب الى الحضيض . كما أن نقطة واحدة من هرمون جنسى (اوستروجين) تثير الغرائز الجنسـية البهيمية فى نحو عشرة آلاف فأر . فان القوة الـكامنة فى الهـرمونات بعيـدة المدى !

وقد أجرى « جالكين » اختباراته على هرمونات أخرى ـ غير الانسولين ـ فكانت النتيجة واحدة ، اذ انها كانت تتجرد من قدرتها على التفاعل اذا كان الحى تحت تأثير البنج .

وقد فتحت هذه التجارب والحقائق نافذة انهالت منها الاسئلة من كل جانب : فالى أى مدى يمتد تأثير « البنج » على تفاعل الجسم مع المواد الضارة ؟ .. وماذا يحدث حين يزول أثر البنج ؟

ولكى يكون « جالكين » حاسما فى رده ، اختار أخطر السموم ، وأكثرها قسوة وضراوة ، وهو « سيانور البوتاسيوم » . فان مجرد شم مادته يشل كل خلايا الجسم ويمنعها من التنفس ، ولا يلبث أن يؤدى الى الوفاة . وقد عرض « جالكين » ١٢ قطة لهذه المادة السريعة الفتك ، وكانت بينها ست قطط تحت تأثير « البنج » ، فاذا بالقطط اليقظة تموت فى ثوان قلائل ، بينما ظلت الاخرى حية تتنفس .. وعندما زال أثر « البنج » عن اثنتين منها ـ بعد عشر دقائق ـ نفقتا فى الحال . وبعد ساعة أفاقت القطط الاربع الاخرى ، ولما زال عنها أثر « البنج » قامت تلهو وتلعب ، وكأنها لم تتعرض لاخطر السموم !

وكان التفسير ان المواد الضارة تظل فترة فى الدم ، ثم تغادره بأجهزة الافراز . فاذا ما أفاق الحى ـ وهى لاتزال نافذة المفعول ـ فانها تؤثر عليه . وهذا ماحدث للقطتين اللتين نفقتا ، اذ أنهما أفاقتا قبل أن يغادر السم جسميهما ، فقتلهما على الفور . أما الاربع الاخرى ، فلم تتأثر به ، لان عنصر الزمن أزال مفعوله ، وقضى على كل آثاره

علاج لمرضى الصرع

• **وكان** من الطبيعى ـ بعد كل هذه التجارب والنتائج ـ أن يتجه البحث الي الناحية المفيدة ، وهي علاج الامراض .

ورؤى البدء بمرض **الصرع** . ففيه تغزو بعض المواد المخ ، فتحدث رد فعل ونوبات قاسية .. واتجهت النية الى البحث عن وسيلة لمنع هذه المواد من احداث تفاعلاتها . وكانت أول التجارب تتمثل فى اصطناع هذا المرض فى الحيوانات بحقن بعض القطط بزيت الكافور . فاذا ماوصل الزيت الى المخ ، أحدث نوبات صرع تتفاوت من ٢٠ الى ٢٤ نوبة وتنتهى بوفاة القطة .. أما فى حالة خضوعها لتأثير المخدر ، فقد ظلت محتفظة بحالتها الطبيعية . وتعرضت التى أفاقت منها ــ قبل أن تغادر المادة جسمها ــ للنوبات . أما التى استمرت مخدرة لفترة كافية لتحلل المادة وتسربها ، فقد استأنفت نشاطها العادى عندما أفاقت

وفحص الخبراء بعض الحيوانات التى قتلتها نوبات الصرع المتوالية ، ودرسوا التغيرات التى طرأت على المخ ، فوجدوا ان الخلايا العصبية مصابة بتلف وانحلال ، وظهر لهم ان مدى التلف يتوقف على عدد نوبات الصرع وطولها . فاذا كان عدد نوبات الصرع فى قطة من ٦ الى ١٠ نوبات ، فان تلف الخلايا يكون بسيطا . ولكنه يزداد وضوحا وخطرا اذا أصبحت النوبات من ١٤ الى ١٨ نوبة .. ويصل الى أقصى مراحله اذا تجاوزت النوبات ٢٢ الى ٢٤ نوبة ، اذ تعقبها الوفاة مباشرة .

وعرضت احدى القطط لنوبات صرع بلغ عددها ١٨ نوبة ، ثم وضعت تحت تأثير المخدر ، وتركت لتنام ثلاث ساعات ونصف ساعة ، ثم قتلت لتشريح مخها وتقدير ما طرأ على خلاياه من تلف ، فاذا التشريح يثبت أن الخلايا كانت عادية سليمة . **ومما لا ريب فيه أن التلف أصابها فى فترات نوبات الصرع ، ولكن التخدير أفادها ، وأتاح للخلايا أن تعالج نفسها من التلف الذى انتابها ، وتسترد سلامتها لتستأنف نشاطها العادى .. فدل هذا على أن التخدير لايقتصر على وقف نوبات الصرع ، بل ان طول فترته المناسبة تتيح للخلايا أن**

تعالج عللها ، وتصحح ما يطرأ عليها من أمراض وعيوب .
واذا كان التخدير قد أتاح هذه الفرصة الثمينة لخلايا المخ المعروفة بشدة تعقدها وحساسيتها ، فمن الجائز أن يتيح الفرصة نفسها لشتى خلايا الجسم وأنسجته .
وعلى هذا الاساس ، يرى بعض خبراء روسيا انه من الميسور أن نعالج بالبنج شتى الامراض والعلل

((البنج)) وغزو الكون

• **ولمواد** التخدير نصيب فى غزو الكون كذلك ، وتحليق الاحياء فى طبقات الجو العليا حيث يندر الاكسوجين ، ويقل الضغط الجوى . وفى احدى التجارب وضع الباحثون الروسيون قطة فى ((غرفة الجو)) . وهى غرفة مصنوعة بحيث يتناقص فيها الاكسوجين ويزداد الضغط الجوى ، وفقا للحالات الجوية التى تواجه الاحياء عند سفرهم فى طبقات الجو العليا . وفيها يمكن تقليد الحالات السائدة على ارتفاع يتفاوت بين ستة أميال و خمسين ميلا .
وضعت القطة فى هذه الغرفة التجريبية ، ثم أديرت أجهزتها ، فصار جو الغرفة مشابها لحالة الجو على ارتفاع ثلاثة أميال ، فظهرت على القطة علامات عدم الارتياح ، وبدأت تتنفس بصعوبة ، وارتفعت الى خمسة أميال فبدأت القطة تنهار بسرعة ، وظهرت عليها علامات الارهاق وهى تتنفس ، وانساب اللعاب من فمها ، وقبعت فى يأس بأحد الاركان .
وأستمرت حالة الارتفاع ، حتى بلغت ستة أميال ، فزادت حالة القطة سوءا ولم تقو على الوقوف على أقدامها ، فانطرحت على جانبها ، وهى تلتقط أنفاسها فى شهقات طويلة متقطعة .
ولما وصلت الى ارتفاع سبعة أميال ونصف ميل ، إنتابتها التشنجات العضلية ، وتصلبت أعضاؤها ونفقت ، لان قلبها

توقف عن أداء عمله بسبب نقص الاكسوجين الذى تستحيل الحياة بغيره

وقد تكررت التجربة على اثنتى عشرة قطة أخرى ، وكان نصفها تحت تأثير « البنج » والنصف الآخر فى حالته العادية. فاجتازت القطط النائمة رحلتها بسلام ، وان تحملت عناء فى التنفس فى نهاية الرحلة . أما القطط التى لم تكن مخدرة ، فحل بها الموت كالقطة الاولى . كذلك جرب التخدير الخفيف على مجموعة من الكلاب وتركت فى نصف غيبوبة ، فاجتازت الرحلة بسلام أيضا . وأثبتت مواد التخدير قدرتها على التغلب على عقبات غزو الكون

(**كتابى :** على هدى هذه التجارب أرسل الروس الكلبة « ليكا » فى قمرهم الصناعى الثانى)

علاج الامراض العقلية بالبنج

• **ولقد** لوحظ فى المستشفيات،أن الافراد الذين يصابون وهم تحت تأثير الخمر ، يكونون أسرع شفاء من غيرهم . ذلك لان المسكرات نوع من المخدرات، وهى تنوم خلايا العقل، وتفرض ما يسمى بالكبت الواقى الذى يخفف الاصابة ويعجل الشفاء . وقد أقترح العالم الروسى الكبير « بافلوف » علاج بعض الامراض العقلية بالتنويم الصناعى بأنواع « البنج » الملائمة ، التى تجعل المريض يستغرق فى النوم من ١٥ الى ١٨ ساعة . وجرب هذا العلاج فى حالة « الشيزوفرانيا » أو أنقسام الشخصية ، فأسفر عن نتائج تبشر بالخير

وتتعاون الآن كثير من المعاهد الطبية لدراسة أنواع «البنج»، لمعرفة مدى قدرتها وتأثيرها فى علاج الامراض . اذ ثبت لدى العلماء الروس أنها علاج ناجع يمنع الخلايا من التعامل مع المواد التى تحدث ألالتهابات كالسموم والمواد الغريبة .

وقد نجح كثير من الاطباء فى استخدامها كعلاج لمنع الصدمة

العصبية التى تحل بالمصابين فى الحوادث والحرائق ، وكذلك بعض حالات ((التيتانوس)) وقرح المعدة وغيرها .

بل أن الخبراء الروس يمضون قدما ، فيحاولون علاج الامراض المعدية — التى تحدثها الميكروبات — كالنزلة الرئوية والطاعون ، بوساطة التخدير والتنويم الصناعى الطويل . وقد لاحظوا أن الحيوانات التى تنام فصلا من السنة ، لا تصاب بهذه الامراض فى أثناء نومها ، وان كانت تتعرض للاصابة اذا أستيقظت قبل أن يزول أثر الميكروب .. وبالرغم من البحوث والنتائج التى حصل عليها الاطباء الروس فى هذا السبيل ، فان دراساتهم — فى هذه الناحية — لا تزال فى مرحلة التجارب. فهى تقتصر على المعمل ، ولكن بعضهم يعتقد أنه لن تمضى فترة طويلة حتى تكون مواد التخدير من أهم أسباب علاج الامراض

عيون فى ثلاجات لاعادة البصر للعميان

• وللجراحين فى روسيا تجارب واسعة النطاق فى مجال أستبدال الاعضاء التالفة بأخرى سليمة يستخلصونها من الحيوانات وجثث الموتى ، اذا ما تعذر الظفر بها من المريض نفسه . ولم تقتصر تجاربهم على ترقيع البشرة ، وقرنية العين ، والعظام ، والاعصاب ، والاوعية الدموية .. بل انها أمتدت الى أكتشاف عوامل لتنشيط الحياة ، وأضفاء لون من التجديد عليها ، يدخل فى نطاق اعادة الشباب واطالة العمر .

ومن أشهر الباحثين فى هذا المضمار ، طبيب العيون ((فلاديمير فيلاتوف)) ، الذى ظهرت أكتشافاته البارعة أثناء بحثه الطويل عن طريقة محكمة لترقيع قرنية العين بسهولة ونجاح أكيد ، مما يعيد الى ملايين العميان نعمة البصر . فلقد كان هم الاطباء الذين مارسوا عمليات ترقيع القرنية ، هو أستبدال عدسة العين المعتمة — التى لا ينفذ خلالها الضوء — باخرى شفافة . فكانوا يتخبطون فى كل واد دون نتيجة

حاسمة .. وكانت أقصى نسبة للنجاح وصلوا اليها هى ١٥ فى المائة . **فلماذا تنجح ١٥ عملية فقط من كل مائة ؟ ولماذا تعتم العدسة الشفافة ، ويظل ٨٥ فردا من كل مائة من الاحياء فى عالم الظلام ؟**

هنا طلع « فيلاتوف » على العالم بنظرياته عن تلك المواد التى سماها المنشطات الحيوية ، فارتفعت النسبة الى ٤٥ فى المائة ، ثم الى ٨٠ فى المائة . وكان مجرد التفكير فى اجراء الجراحة عبئا ثقيلا تعترضه مشكلات عسيرة الحل ، اذ أن كل عملية تحتاج الى انسان يقبل التنازل عن عين سليمة. **ولكن أكتشاف « فيلاتوف » ذلل هذه الصعوبة، وأتاح الظفر بالعدسات من عيون جثث الموتى والحيوانات !.. بل انه ذهب ــ كذلك ــ الى أنه لا داعى لتركيب العدسات الجديدة فى مكان القديمة بسرعة فائقة ، اذ أوجب خزن العدسات ــ فى الثلج ــ نحو أربعة أيام ، تصطنع خلالها المواد الحيوية التى تثبت العدسة فى مكانها ، وتمنعها من الاعتام !**

ومن العجيب أن « فيلاتوف » فطن الى مادته السحرية ، حين قرأ مقالا نشره طبيب العيون الفرنسى « ماجيتو » عن عملية لم يعثر فيها على عدسة حديثة العهد ، فاستخدم عدسة كانت قد حفظت فى الثلج لمدة ثمانية أيام . وقد أجرى العملية وهو واثق كل الثقة من أنها فاشلة. ولدهشته البالغة أستقرت العدسة فى مكانها ، وظهر عليها ــ فى أول الامر ــ أعتام بسيط ، مالبث أن أنقشع !

لفت هذا المقال نظر « فيلاتوف » ، اذ أنه رأى أن النجاح لم يكن مجرد مصادفة شاذة ، وانما كان وراءه سر يجب كشفه بالدراسة والبحث والتجربة . وكانت تجاربه العديدة السابقة تؤيد ذلك . فشرع يبحث عن أثر تخزين الانسجة الحية ، بين الثلج وبرودته ، بعيدا عن الجسم الذى يعولها .

وأجرى عشرات التجارب على الحيوانات ، أثبتت له أن

العدسات الحديثة الاقتلاع ، أقل قدرة على اداء مهمتها من العدسات المختزنة . وبالتالى ، أستنتج أن عملية الاختزان تدفع النسيج الحى الى أفراز مادة تجعلها أكثر صلاحية للاستقرار فى مكانها الجديد !

وقاده البحث الى اكتشاف مادته السحرية ، التى أثبتت أنها تنشط العمليات الحيوية . وهى تنمو وتصل الى أقصى مداها بعد أربعة أيام ، اذا خزنت فى درجة حرارة ٣ مئوية . وقد علل ظهور هذه المادة،بأنه عندما يفصل نسيج حى عن عائله ، ويوضع فى ظروف غير ملائمة لحياته،فانه يحاول صد عوامل الفناء ، بأن يفرز مادة تتيح له الحياة لاطول فترة ممكنة .

هذه المادة السحرية العجيبة !

• **وقد** ظهرت فوائد المادة الحيوية بوضوح فى عمليات ترقيع القرنية ، لان أثرها أمتد الى الاجزاء المعتمة التى لم تستأصل فى الجراحة ، فصارت شفافة . وقيل ان المفعول المنشط للمادة يسرى فى الجسم كله ، ويتناول كل أنسجته ، اذ تتسرب اليها — عن طريق الجهاز العصبى — وتنشطها ، وتمكنها من أن تعالج ما يحل بها من عيوب . وقد لوحظ هذا التأثير فى العيون. فعندما تكون العينان مصابتين معا بالسحابة المعتمة ، فان ترقيع قرنية احداهما ، يعيد للاخرى شفافيتها .

وأنتقل « فيلاتوف » لدراسة ما يحل بشتى الانسجة عندما تكره على الحياة فى بيئة غير ملائمة لها ، فوجد أن كل الانسجة الحية — سواء أكانت حيوانية أم نباتية — تنتج موادا حيوية منشطة . **وبهذه المواد الحيوية نجح فى أعفاء بعض المرضى من اجراء عمليات ترقيع القرنية ، اذ كان يرد اليهم أبصارهم ، بأن يأخذ من ذراع المريض شريحة من الجلد، فيحفظها أربعة أيام فى الثلج، ثم يلقحه بها ، بأن يضع الشريحة**

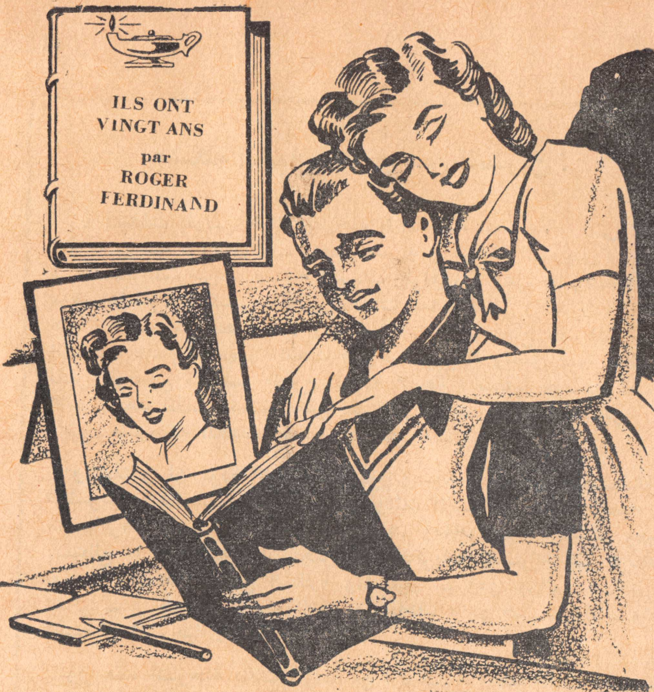
بموادها تحت جلده فيزول أعتام عدسات العيون !

ودل البحث أيضا على أن هذه المواد الحيوية تحتمل درجة حرارة عالية ، تكفى لقتل أى ميكروب غريب . بل أن تعريض النسيج الحى لهذه الحرارة يحفزه على زيادة افرازه للمادة الحيوية . فالحرارة كالبرودة من العوامل التى لا تلائم الحى ، وتحفزه على العمل لزيادة وقاية نفسه . وبهذه الخاصية أمكن تعقيم المنشطات الحيوية بالحرارة واستخدامها كحقن لعلاج مجموعة من الامراض كالسل ، والنزيف ، والربو

وعلى ضوء المنشطات الحيوية فسر الروسيون بعض الظواهر المحيرة فى الانسان . ومنها التحسن المفاجىء الذى يطرأ على بعض المرضى عقب أزمات عنيفة . وهو تحسن قد يفضى الى الشفاء ، وقد يؤدى الى الموت . . وهذا ما نعرفه بصحوة الموت ! **ويفسر هذا التحسن بأن الجسم نفسه يصطنع هذه الحيويات المنشطة ، عندما تبلغ الحالة أقصى درجات السوء ، اذ تلجأ الانسجة الحية الى آخر ما فى جعبتها من أسلحة الدفاع ، فتفرز الحيويات المنشطة المسببة الصحوة**

ولقد فحص بعض الرياضيين عقب بذلهم جهدا جبارا مرهقا فى مبارياتهم ، فسجلت عيونهم تحسنا غير عادى .. وعندما أخذت عينات من دمهم ، وحقن بها أناس آخرون ، أنتقل هذا التحسن اليهم ، مما دل على أن دم الرياضيين حصل على مواد جديدة لم تكن فيه من قبل . ولما فحصت هذه العينات كيميائيا ، ظهر أنها تحتوى على مواد تشبه المنشطات الحيوية ، مما دل على أن ما بذله الرياضيون من جهد ، دفع انسجتهم الى أفراز الحيويات لمواجهة الموقف

ولقد أدت تجارب « فيلاتوف » الى تعزيز الرأى القائل بأن **العمل ضرورى لتجديد الشباب واطالة العمر .. ففى العمل ، ينتج جسمك هذه الحيويات المفيدة التى تدعم نشاطه ، وترسل فيه قبساجديدا من الحياة القوية السليمة .**



علموهم الحب أيضا!

قصة تمثيلية كبرى ، للروائى الفرنسى المعاصر

"روجيه فرديناند"

عرض وتلخيص : الدكتور أنور لوقا

المدرس بكلية آداب جامعة عين شمس

مشكلة الشباب .. فى سن العشرين !

• صفقت باريس طويلا لمسرحية ((المدرسة الجديدة)) التى عالج فيها ((روجيه فردينان)) - بفضل خبرته فى مزاولة التدريس ، وفنه فى الانشاء المسرحى - مشكلة الشباب المراهق . وهى المسرحية التى عرضناها لقراء ((كتابى)) على صفحات العدد الثانى والثلاثين ، تحت عنوان ((علموهم الحب)) . وقد استغل المؤلف نجاح تلك المسرحية الكبيرة ، فقدم للجمهور المعجب مسرحية جديدة واصل فيها معالجة نفس الموضوع ، بنفس الروح الجادة المرحة ، متعقبا حياة نفس الابطال بعد انقضاء سنتين على تخرجهم من مدرستهم الثانوية ، وعنون مسرحيته الجديدة ((انهم فى سن العشرين)) !

ولاشك فى أن عودة الابطال للجمهور وسيلة بارعة من وسائل التشويق . فالجمهور قد عاش مع أولئك الاشخاص حقبة ماضية ، شاطرهم فيها مشاعرهم وخواطرهم ومغامراتهم ، ويلذ له وهو يستطلع ما آلوا اليه ، أن يجتر تلك الذكريات المشتركة التى تربطه بهم . وهكذا يجتمع النظارة والممثلون - ومن ورائهم الكاتب الذكى - فى جو من الالفة والاخاء والتعاطف ، هو خير الاجواء لاستقبال المسرحية والاستمتاع بها .

وفى هذه المسرحية ينقلنا المؤلف من ((كوتانس)) ، تلك المدينة الصغيرة الواقعة على شاطىء البحر ، ومن فصول مدرستها الثانوية ، الى قلب الحى اللاتينى فى باريس حيث يلتقى ، بين الحين والحين ، أولئك الزملاء أثناء دراستهم فى الجامعة والمعاهد العليا . لقد بلغوا سن العشرين ، فالى أى المغامرات سيقودهم شبابهم خلال مفاتن باريس ؟ انهم فى ترنحهم بين الضلال والهدى انما يبحثون عن الحب ، ولا ينسى زعيمهم ((جبرييل لامى)) درس الصبا الذى ألقته فى قلبه المتفتح أستاذة الفلسفة ((الآنسة برافار)) .. فهى التى علمته الحب ، والحب هو الذى أنقذه وأنقذ زملاءه من التردى فى هوة الفساد والاجرام وغياهب السوق السوداء !

ولكن ، تعال نستمتع معا بهذه المسرحية الجديدة الرائعة :

- ١ -

ترتفع الستارة عن غرفة الطالب « جبرييل » ، الواقعة سى سطح عمارة بشارع « مسيو لبرانس » ، وقد جلس الفتى الى مكتبه يقرأ . ويبدو لنا كأنه شارد الفكر ، فهو يرفع بصره من لحظة الى أخرى ليطيل النظر الى صورة مكبرة تتصدر الجدار أمامه ، هى صورة الآنسة « برافار » كما عرفناها ، أستاذة فنانة ، متأبطة حافظة كتبها ، حاملة « كمنجتها » فى يدها . ونحن نذكر كيف أسدلت ستارة الفصل الاخير من تمثيلية « علموهم الحب » على مشهد مماثل فى أحدى قاعات المدرسة الثانوية ، حيث جلس جبرييل الى قمطره عقب رحيل أستاذته التى هام بها حبا ، وأخذ برنو الى مكانها الشاغر فوق المنصة ، وقد وضع أمامه صورتها وفتح كتابا يتناسى فى قراءته شجاه . هكذا يحرص الكاتب على وصل مسرحيته الاولى بمسرحيته الثانية. وتدلنا تفاصيل ما نرى ، ولاسيما الحركة التى يأتى بها جبرييل فى صمته العامر بالمعانى ، اذ ينهض ليغير الماء لباقة الزهر التى تجاور الصورة، أن الفتى مازال متيما ، وفيا لحبه الكبير !

ويطرق الباب طارق ، هو الصديق « باتوريل » ، ذلك الذى نعرفه بوجهه الوسيم وصدره العريض وصوته الرخيم . لقد تابع ميله القديم للموسيقى والغناء فالتحق «بالكونسرفاتوار»، وبدأ يغنى فى بعض الحفلات العامة. وهو مقبل يزف لصاحبه فى كثير من الفخر أنباء ابداعه فى سهرة الامس اذ هلل له الجمهور على اثر انشاده مقطوعة عسيرة الاداء ! وينظر - وهو فى نشوته بأنباء مجده الفنى - الى الصورة المعلقة ، ويثنى عليها من عليائه ثناء بذيئا :

- لا بأس بجسمها ، هذه البنت !

فيحتج جبرييل متحفظا ، ويسأله أن ينصرف . ولكن حوارا سريعا يدور بينهما :

ـ هكذا أنت تفكر فيها بعد سنتين من فراقها ؟

ـ طاب مساؤك . مع السلامة !

ـ صدقنى ياجبرييل . ان أضمن وسيلة للسعادة هى أن يحب المرء نفسه أولا .

ـ اذن ، فأنت لا تتألم كثيرا . الى اللقاء !

ـ مثل هذه القصة فى سنك نوع من الجنون !

ـ لا تحاول أن تفهمنى .

ـ انك تعلم أننى لا أحتقر البنات احتقارا كليا ، بل انى لاعترف بما لهن من فتنة تجذبنا فى ساعات الحاجة . وأما أن تقيد قلبك وتربطه الى صورة واحدة ، وتفسد ربيعك العشرين فى مراجعة ذكريات ، مهما كان جمالها ، بينما قد أتيحت لك مزايا نادرة ، فذلك شىء مؤسف !

ويدعوه الى جولة فى الشوارع الكبرى (البولفار) حيث تنتظر على قارعة الطريق مئات من بنات الهوى ، ما عليه الا أن يختار من تحلو له من بينهن . فيرفض . ويظن «باتوريل» فى غبائه أن « جبرييل » يرفض المحترفات ، فيعرض عليه صاحبته « ليلى » ، أو تلك الاخرى التى لقيها معه ذات ليلة فى قهوة « السورس » . فيرثى له جبرييل ملتمسا له العذر فى أنه مازال صبيا غريرا يجهل الحب . **ويصطدم الرأيان : رأى باتوريل الذى تستوى لديه هذه أو تلك ، ورأى جبرييل الذى يدافع عن وحدانية الحبيب ويجهر بأنه لم يجد فى باريس الزاخرة امرأة واحدة تشبه الآنسة برافار فى حسنها وذكائها ورقتها !**

وعندما يهم باتوريل بالخروج ، يدخل الزميل الغليظ « بارباران » ، وهو يريد أن يستعير من جبرييل رباط عنق رائع لكى يظهر به فى احدى مغامراته النسائية . ويأخذ فى

رواية بعض مغامراته لزميليه : كيف خرج فى الصباح من مدرسة « الدراسات العليا » بالسوربون — دون أن يدخل المحاضرة التى يجدها غاية فى الاملال — وكيف تبع فى شارع « سوفلو » شقراء حسناء عارية الرأس ممتلئة الساقين ، أثارت ثائرته ! ركبت « الاوتوبيس » فركب وراءها ، ونزلت فى أحد أطراف باريس فنزل وراءها ، وظل فى الطريق يتقدمها تارة وتتقدمه تارة أخرى ، حتى دخلت صالون حلاق لتصفف شعرها ، فانتظرها على المقعد المقابل فى الشارع ، وأمطر المطر فلاذ ببوابة هناك ، وانقضت ساعتان دون أن تخرج الشقراء ، واشتد هطول المطر ، وازدحم الناس تحت البوابة ، فالتفت فجأة واذا بجواره سمراء فاتنة قدر فى الحال جمالها قياسا ووزنا ، وما أن انقطع المطر حتى تبعها الى محطة « المترو » . . . وقبل أن يبدأها بالخطاب كان قد احتواها بين ذراعيه رجل ينتظرها . هو لم يفلح اذن الا فى مغامرته الثالثة ، ويمضى فى تفصيلها . . فيضيق جبرييل بلهجته الماجنة وحديثه العابث ، لا سيما حينما يعلق على صورة أستاذتهم السابقة بعبارة تجرح شعور المحب الصادق !

— انك تنزل بالحياة الى الحضيض . ومثلك كمثل الكلب الذى يذرع الشوارع يشم أكوام القمامة ويرتع فى الوخم . وليس لك من الحياء ما يمكنك من احترام شعور غيرك .

— أفتحبها ؟

ويعتذر الفتى الغليظ للفتى الرقيق ، فيغفر له على شرط الا يرد ذكر الآنسة برافار على لسانه بعد ذلك .

وهنا يدخل زميل ثالث ، هو « هنرى لافاليه » ابن ناظر المدرسة الثانوية . ونحن نعرف براعته القديمة فى الرسم الكاريكاتورى الساخر من أبيه ومن أساتذته ، فلا يدهشنا أن نعلم من سياق حديثه انه التحق بمدرسة « **الفنون الجميلة** » ، وأنه وجد على هامش دراسته عملا بأحد « ستوديوهات »

السينما . وهو قد أقبل ليزف لصديقه العزيز « جبرييل » بشرى سعيدة ، فى عبارات غامضة أول الامر . أما نحن فنعلم من حوارهما أن الفتى العاشق – « جبرييل » – قد أنطوى على نفسه المشتاقة وذكرى حبه العطرة ، بعد أن أعياه البحث عن الآنسة برافار فى السوربون وفى مكتبات باريس وشوارعها ، وانه لم يستطع أن يحبس دمعه يوم أحضر له هنرى صورتها المكبرة التى رسمها لها ، وانه حاول بعد ذلك أن ينسى حبها فى صخب مغامرات الشباب ، ولكن دون جدوى . وهذا هنرى يشير الى الصورة المكبرة ويحثه على النزول الى المقهى الصغير المجاور حيث سيجد نفس الصورة مجسمة طبيعية جالسة الى يمين الداخل . ويحذره من تنبيهها أو الانقضاض عليها بالعناق والقبلات لئلا يفسد الامر بينهما . ما عليه الا أن يلمحها وهو يتظاهر بالدخول الى غرفة التليفون فى أقصى المقهى ، وأن يعود بعد ذلك لهنرى الذى ينتظره والذى يتكفل باصطحابها اليه دون ابطاء !

تستخف الفرحة جبرييل ، فينزل فى الحال قاصدا المقهى المجاور ، على حين يتصل الحوار بين «هنرى» و «بارباران» ، **ويبوح هنرى بأن الفتاة الجالسة فى المقهى ليست هى الآنسة برافار وانما هى ممثلة تشبهها أتم الشبه ، تعرف بها ذات يوم فى « الاستديو » – وكانت تؤدى دور أميرة شرقية – فقص عليها قصة صديقه العاشق الذى أصبح فريسة للسقم لانه فشل فى أن يجد محبوبته ، فما بالها لا تظهر أمامه يوما متأبطة حافظة الكتب وممسكة « كمنجة » فى يدها ، لعل هذه اللقيا أن تعيد الى الفتى ثقته فى الحياة ؟**

وبينما يستقى كل من الزميلين أخبار صاحبه ، وكيف يرسل اليه أبوه من النقود ما لا يكفيه ، وماذا يعترضه من المشاكل المادية ، يطرق الباب طرقا خفيفا ، ويهلل الزميلان اذ الوافد صاحبهما « لوجرو » . و « لوجرو » هو الطالب الذكى

الوديع النقير ، الذى تعلم مجانا فى المدرسة الثانوية ، وكان ينظم الشعر . وهو بوجهه الجاد، وحركاته الرزينة ، وهندامه المحترم ـ وان كانت حلته قد ضاقت عليه ـ يتميز من زميليه اللذين تبدو عليهما آثار الفوضى والاهمال فى العيش . انه يحمل عدة كتب كبيرة ، ويحيى فى رفق ، ملتمسا جبريل . ويقدر الزميلان زيارته ، فقد أصبح قليل الظهور فى محيطهم ، لانشغاله بالتدريس والدراسة معا ، فهو من ناحية يعطى دروسا خصوصية ليكسب عيشه ، ومن ناحية أخرى يريد الحصول على شهادة « مدرسة المعلمين العليا » . ورغم مشاغله تلك وأعبائه ، ولاسيما توليه أمر أمه الارملة وأخواته الصغيرات ، فانه سعيد مستبشر ، **يرى أن الحياة تقدم لنا من الخير أكثر مما نستطيع أن نستوعب .. انه أفقر من زملائه جميعا ، ولكنه غنى بما تمتلكه عينه ونفسه من روائع اللوحات فى متحف اللوفر ، وروائع الروايات على مسارح باريس . لقد انصرف الى كنوز الثقافة ، بينما انصرفوا هم الى كهوف اللهو .** وهو يلح فى السؤال عن جبريل ، مستطلعا حظه من التوفيق فى حبه القوى المتأصل ، وهل سعد بلقاء الآنسة برافار ؟.. فيستمهله الصديقان برهة قصيرة ليقف على السر بنفسه . وريثما يعود جبريل يتبادل الثلاثة أخبار مايهمهم فى باريس، ثم يستأذن « لوجرو » فى الانصراف كى لا يفوته قطار الليل الذى قرر أن يعود فيه الى (كوتانسى) ليسلم على أمه سلاما عاجلا قبل دخولها المستشفى لاجراء جراحة لها . وفى حركة طبيعية يخرج هنرى وبارباران بعض أوراق النقد ويقدمانها لزميلهما العزيز تضامنا معه وتيسيرا عليه ، واذ يصر على الرفض فى بساطة ولباقة وشمم ، يخلع بارباران ساعته من حول معصمه ويطوق بها معصم « لوجرو » زاعما أنه يهديه اياها وأنه يقتنى ساعة غيرها . وقبل أن يخرج « لوجرو » شاكرا ، يتمنى لو اتسع له الوقت للمرور على

جبرييل مرة أخرى ليبلغه نبأ خطيرا . ويبدى صاحباه أستعدادهما لنقل النبأ اليه . ولكن اوجرو يستحلفهما ألا يفوها بكلمة من هذا السر حتى لجبرييل ، فانه حريص على أن يشرح له الموضوع شخصيا . ويسترسل قائلا :

ـ بالمصادفة ، قابلتها .. أمس . كنت أستعرض الكتب فى احدى مكتبات الحى ، واذا بشخص يعانقنى .

ـ من ؟

ـ انها لم تتغير .. جمالا ، وامتيازا ، ونظرة نقية صريحة . كدت أبكى من التأثر . وجلسنا ساعة فى حديقة (اللوكسمبور) نتحدث والجو بديع رائع . سألتنى عن أشياء كثيرة . يالها من شخصية عجيبة ! ان كل ماتقوله ثمرة تفكير ، ورقة وشغف ، انها نفس صافية . حلوة كما هى ، لا يبدو عليها كبر ولا تكلف !

ـ أهى ابنة وكيل المحافظ التى كانت تروقك فى البلد ؟

ـ وصاحبتنى من ميدان « سان ميشيل » الى « باسى » . نزهة طويلة على ضفاف السين ، ما كان أقصرها !

ـ قل لنا من تكون ؟

ـ هل ضعفت ذاكرتكما ؟ ... الى اللقاء ! ولا تفوها بكلمة لجبرييل !

ويخرج . ويستنتج الزميلان أنه لقى أستاذتهما الآنسة « برافار » .

بارباران : ولماذا لم تقل له أن يأتى بها الى هنا ؟

هنرى : مادامت بين يدينا فتاة بديلة لها ، فليس ما يدعو لتعقيد الامور .

بارباران : ان تأثير الصورة على المرء لا يساوى تأثير الاصل .

ويدخل جبرييل مندفعا ، سريع الحركات ، يطفر فرحا . يصلح من هندامه دون أن يتكلم ، ثم يهجم على هنرى فيقبله فى عنف ليشكره ، ويهز بارباران بين ذراعيه حتى يكاد يلقيه

على الارض . ثم يجر قطع الاثاث فى الغرفة وينظم وضعها .

ـ لقد رأيتها !.. أتنزل ياهنرى لاصطحابها ؟ يا لسحرها وهى فى جلستها الطبيعية ، ترشف شرابها دون مبالاة بشىء ، ولا تحول عينيها عن المجلة التى أنغمرت فى قراءتها ، وأناملها تقلب صفحاتها فى رشاقة ... هيا هنرى ! انى مستعد ... أتظن أنها سوف تصعد معك ؟ وأراها أمامى ؟ وتتكلم ؟

فيهدىء بارباران من روعه . ويخرج هنرى دون أضطراب ويغلق الباب . ويحاول العاشق السعيد أن يشرح لصاحبه الغليظ سعادة الحب ، ثم يرجوه أن ينصرف :

ـ وجودك غير مرغوب فيه .

ـ دعنى أراها خمس دقائق .

ـ لو مكثت خمس دقائق لسرقت منى جزءا من المشهد ، والمشهد لى وحدى .

ـ أعدك بأن أنصرف بعد ذلك . ولكنى حريص على أن أراها .

وينفتح الباب فى رفق . ونسمع صوت هنرى قائلا : « تفضلى ! » . فيقف جبرييل منتصبا ، ويحاكيه بارباران . ثم تدخل الزائرة فى صمت . وتجلس بعيدا عن الضوء . انها تشبه الصورة التى تتصدر الجدار .

ويخاطبها جبرييل باحترام شديد ، وهو لا يكاد يرفع اليها عينيه . يرحب بها ، ولا يجد الكلمات التى تستطيع أن تعبر عن فرحته العاتية بلقائها ، بعد أن فقد الامل فى اجتماع شملهما ذات يوم ! أما هى فتسمع دون أن تقول شيئا . ويصف لها جبرييل كيف انتظر وتجلد وعاش مع صورتها الليل والنهار .. فيتبادل بارباران وهنرى من الغمز واللمز امارات اغتباطهما بنجاح الخدعة !

ويضيق العاشق باسترسال محبوبته فى الصمت ، وبعدم تجاوبها معه ، فيسألها ماذا يعتريها ، وهل أخذها الاضطراب ، وهل هى مسرورة بلقائه . فتجيبه بالايجاب . غير أنه يلمس

شيئا من التحفظ فى نبرة صوتها ، ولكنها تنفى عنه هذا الخاطر ..

وينصرف بارباران ، ويتبعه هنرى . **ويخلو جبرييل بتلك التى يظنها حبيبته ، فيقبل عليها ، يناجيها ، ويحدثها عن اعز ذكرياتهما ، عن تلك الليلة التى تعشيا فيها ((بالكازينو)) ، وعن الدرس البليغ الذى ألقته عليه وهما ينظران الى البحر ، وعن عودتهما تحت جنح الليل وقد تأبط ذراعها ، نشوان فخورا . ثم يذكر لها كيف غادرت المدرسة الثانوية وهو يشيعها من وراء السور فى حسرة وأسى .**

ــ أتذكرين ؟

ويقترب منها . واذ ينظر الى وجهها ، يقطع حديثه هذا المتدفق ، ويحدق فى ملامحها ، ثم يرفع عينيه الى الصورة المعلقة ، ويقارن بينهما .. ويساوره الشك !

ــ أهى أنت ؟ أم أنت سواها ؟

فتنهض الممثلة ، وتنظر اليه نظرة مباشرة تريد أن تتحدى بها شكوكه :

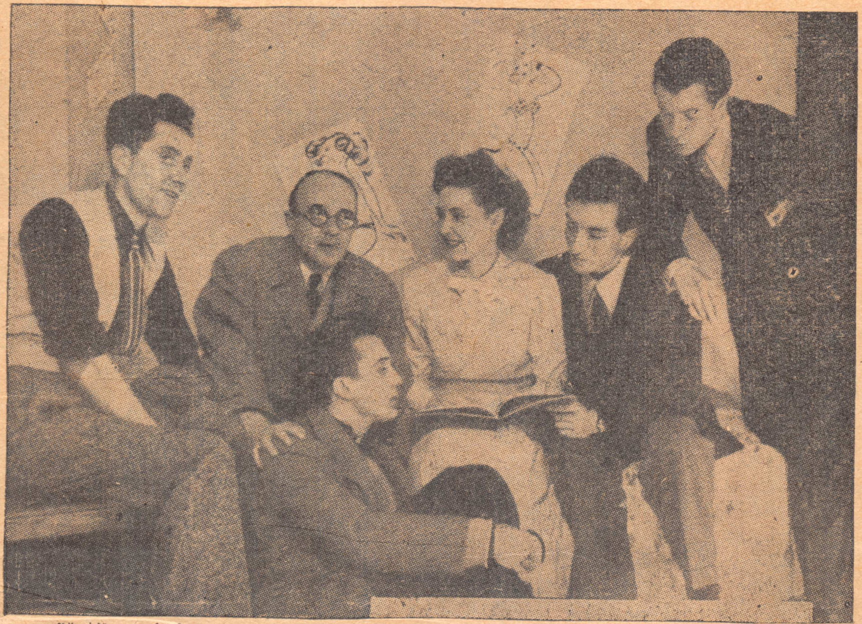
ــ بالتأكيد أنا !

ويأخذ الفتى يديها بين يديه فيفحصهما مليا ، ثم يسألها :

ــ من أنت ؟ انك غيرها ! .. الان أفهم لماذا كانا يضحكان . لقد سخرا منى . تواطأ معك هنرى واستغل شبهك . قص عليك قصتى ، وأظهرك أمامى تحملين حافظة الكتب ، وتتكلفين حركاتها .. يا لسذاجتى ! لقد انخدعت خمس دقائق . أيروقك مشهد فتى شقى ؟ هذه المتعة هى أجرك يا سيدتى نظير تجشمك الحضور الى هنا .

ويتقدمها حتى الباب ليخرجها من غرفته ، وتتبعه طائعة ، ولكنه فجأة يقفل الباب بالمفتاح ويمنعها من الخروج !

ــ لا تخافى ! فأنا لم أحبس أحدا قط ، ولم أنتهك امرأة قط ، رغم ما تغرينى به الشهوة أحيانا .



المسرحية – الأديب المعاصر « روجيه فرديمان » – يتوسط نجوم الفرقة
التى مثلت روايته على المسرح الفرنسى

أما هى فتسأله فى هدوء والحاح أن يخلى سبيلها ،وتعتذر له من اساءتها اليه ، فيفتح لها الباب .

ــ شكرا .. لقد قالوا لى أنى أشبهها .

ــ تشبهين من ؟

ــ امرأة تحبها . هل هذا صحيح ؟

ــ كلا .

ــ ومع ذلك فقد ظننتنى اياها .

ــ من بعيد فقط . خلبتنى بعض المظاهر . ولكن لا وجه للمقارنة !

فتثور الغيرة فى قلب الممثلة ، وتحاول أن تبرز مفاتنها لاغرائه ، ولكنه لاه عنها وعن توددها اليه :

ــ شتان ! هى .. انها هى ! عالم من الذكريات والاحلام ! وأما أنت فلا أعرفك ..

ــ وأما أنا فأعرفك بعض المعرفة . غير أنى لا أريد أن أضايقك الى أكثر من هذا الحد .

وتحييه ، وتكرر اعتذارها ، وتبتسم له ، وتسلط عليه نظرات فاتكة ، قبل أن تستدير وتخرج فى رشاقة متعمدة . ولا تكاد تتوارى حتى يناديها جبرييل :

ــ آنستى !

ــ انى سيدة لا آنسة . ماذا تريد ؟

ــ هل تسمحين لى بكلمة ؟ انى آسف لانصرافك غاضبة . لقد جفوت فى حديثى اليك ، وأسألك العفو .

فتعود الممثلة ، وتتوسط الباب ، لتقول للفتى انها تقبل اعتذاره . ويبدو لنا أنها لا تريد أن تنصرف ، وأنه لا يريدها أن تنصرف . ويبدأ طور جديد من هذه العلاقة المرتجلة .

يخطو جبرييل نحوها خطوة وهو يقول :

ــ بطبيعة الحال ، خاب أملى .. لم تخيبى أنت أملى ، فانك جميلة وغير مسئولة عما حدث ، وانما أغضبنى وقوعى

فى الشرك . ضعى نفسك فى مكانى ! كم كنت سعيدا ! وكم كانت تلك مفاجأة حلوة !

ـ انك شاب صغير السن .

ـ ولكنى تألمت فى حياتى كثيرا .

فترثى له . ويدعوها الى تناول كأس من شراب ، غير أنها تصافحه وتهم بالانصراف ، فيظل ممسكا بيدها ، ويقول لها :

ـ منذ لحظة ، أعمانى الغضب فقلت « لا وجه للمقارنة بينكما » . ولكنك فى الواقع تشبهينها ، بل أرى فيك كثيرا من ملامحها .

ـ وهل كنت تحبها ، تلك المرأة ؟

ـ انها المرأة الوحيدة التى تهمنى فى الدنيا . تستطيعين اذن أن تجلسى دون أن تخشى شيئا .

ـ انى أعرف أن أدافع عن نفسى اذا استدعى الامر !

ـ وهذه حجة أخرى تؤيد دعوتى . أمنحينى خمس دقائق أخرى . فما أثقل الوحدة ، لا سيما فى شبابنا !

ـ انى أقل منك شبابا .

وتجلس ، فيشكرها على بقائها معه ، لان صورتها تذكره بأعز صورة انطوى عليها قلبه . ونفهم ان يأسه من لقاء « الانسة برافار » يدفعه الى أن يخلقها خلقا وأن يصبها فى شخص هذه المرأة المجهولة التى تشبهها . انه يرى الآن فيها مشابه أقوى وأشمل ، وانه ليسعد برفقتها ، رغم أوجه الاختلاف الخطيرة التى يسفر عنها حديثها الغريب . فهى تقول أنها قد تزوجت مرتين ، مما أكسبها مراسا وخبرة ، وانها تركية الاصل تدعى « أنيتا » .. ويحملها اعجابه الساذج على الاسترسال فى رواياتها ، فتزعم له أنها أميرة ، وأن أباها « خليفة » من الخلفاء ، وأنها اجتازت عدة مغامرات وهى تعبر أوربا من الشرق الى الغرب ، حيث تقيم فى أرقى أحياء باريس . وتسأله بدورها من يكون . وتطمئن اذ تعرف أنه وحيد أسرة غنية

تقيم فى اقليم بعيد عن العاصمة .

ولا يلبث الفتى المحروم حتى يقع فى حبائل الممثلة البارعة ! أظهرت فى أول الامر عطفها على شبابه الرقيق ، ورغبتهـا فى مواساته ، فأزالت الكلفة ، ولم تمنع بعد ذلك عنه مفاتنها التى أخذ يهيم بها ، من يديها البضتين ، الى خصرها اللين ، الى عينيها الساحرتين ، الى شفتيهـا .. وها هو ذا يعانقهـا ويقبلها !

على أن الباب يطرق طرقا خفيفا ، ويقول صوت من الخارج :

ــ انى أنا ، لوجرو . افتح يا جبرييل !

ويحاول جبرييل أن يتهرب من فتح الباب ، ولكن « الاميرة » تنصحه بأن يستقبل زميله . وأخيرا يدخل لوجرو حامـلا حقيبة سفره ، متأبطا كتبه . واذ يلمح امرأة فى الغرفة ، يعتذر ويريد أن ينصرف فى الحال .. ولا يكتم جبرييل عن صديقه شعوره الجديد بالسعادة والهناء . فيتراجع لوجرو فى حياء جم . **ذلك أنه أتى خصيصا ليبلغ الفتى العاشق نبأ لقائه بالآنسة برافار ، لكنه لا يرى الآن محلا ولا معنى لبشراه !**

ـ ٢ ـ

• **ترتفع** ستـارة الفصـل الثانى عن نفس الغرفة ، ذات صباح ، بعد انقضاء أسبوع ، وقد طرأ عليها تغيير واحد ، هو منظر عدة صناديق تكدست فى أحد الاركان . وأمامنا هنرى وبارباران ، وقد جلسا الى المائدة ، يخرجان من جيوبهمـا أوراقا مالية ويحسبان فى جد واهتمام . ويظلان فترة لا يتبادلان الكلام ، وانمـا يتبادلان أوراق النقد . ويضطر بارباران الى مراجعة حسابه من جديد ، فقد أخطأ فى بعض عملياته ، على حين يبلغنا صوت باتوريل وصاحبتـه يتـدربان فى الغـرفة المجاورة على القاء مقطوعة غنائية ، تزعج الزميلين المتعبين فى صراعهما مع الارقام .

ما قصة هذا المال وتلك الصناديق ؟ اننا نعرف — منذ الرواية الاولى — أن والد « باربران » من تجار الخمور ، كما نعرف كيف خاض هؤلاء الفتية أوحال السوق السوداء أثناء دراستهم الثانوية . ونحن لا نكاد نفهم من الحوار المتقطع الذى نسمعه الا أن باربران يؤنبه ضميره ، **فهو يغالط أباه فى عدد صناديق الشمبانيا وفى أسعارها ، ولكن شريكه يهون عليه ، ويسخر من جميع مبادىء الامانة التى تعوق الربح والاثراء . انه اذن كسب حرام ، يسعيان اليه لكى يسددا نفقات لهوهما فى باريس !**

ويدخل باتوريل ، فخورا كعادته بما أحرز من نجاح فى دنيا الفن . ويسألهما عن جبرييل ، فيقول هنرى :

— لقد رآه صديقى « فيلبو » فى مطعم (الكوليزيه) وأمامه صحاف الدجاج . وقد رقدت فى دلو الثلج زجاجة من شمبانيا « مويه وشاندون » ، وجلست على الاريكة ، الى يساره ، الاميرة !

ويجمع ثلاثتهم على الاعجاب بسعده وبالترف الذى بات يتقلب فيه . فهو لا يكاد يلم بهذه الغرفة !

باتوريل : هل استقر معها ؟

هنرى : نحن لا نتدخل فى حساباتهما . تكفينا حساباتنا .

باتوريل : بودى أن أطلب منه هذه الغرفة ، فالغرفة المجاورة لا تكاد تتسع لى مع « ليلى » .

هنرى : الا ترى اننا اتخذنا هذه مخزنا لتجارة الجملة ؟

ولا يكاد ينتهى الحديث بدعوة باتوريل الى العشاء الفاخر الذى يقدمه الشريكان احتفالا بمكاسبهما ، حتى يطرق الباب لوجرو . انه يلتمس جبرييل ، ويظن اذ لا يجده أن العمل يستغرقه فى معهده . ولكن تغامز أصحابه ينبئه أن جبرييل غائب فى أحضان امرأة !

لوجرو : اذن فهو يحبها ؟

بارباران : بل ويريد أن يتزوجها !
لوجرو : هل تعرفونها ؟
هنرى : اننا نحلم بها .. أليس كذلك يا باربارا ن ؟
لوجرو : وهل هناك أى خطر ، فى رأيكم ؟
باربارا ن : علينا ، لا خطر مطلقا .

وينظر باربارا ن الى الكتب التى يتأبطها لوجرو ، فيحسده على ثقافته ، ويسأله عن « سارتر » الذى أصبحت فلسفته مدار الاحاديث وموضع الجدل فى كل مكان . فينعى « لوجرو » على « سارتر » تأثيره الهدام ، ويعيب عليه احتقاره للحياة وتلويثه اياها بالوقائع المنفرة ، فما هكذا نعرف الناس بحقيقة الجمال وندفعهم الى حب الحياة وترقية المجتمع .

باربارا ن : ان الحياة جميلة .. فهل تنضم الينا فى حفلة العشاء التى نقيمها يوم الاربعاء المقبل ؟
لوجرو : وهل سيحضر جبرييل هذه الحفلة ؟
هنرى : أهو الذى تريد أن تراه ؟
لوجرو : عندى رسالة هامة جدا ينبغى أن أبلغه اياها ، ولست أدرى كيف أجده .
باربارا ن : حسنا . سوف ندعو الاميرة .
لوجرو : وسوف أجرب حظى وأصعد الى هنا مرة أخرى لعلى ألقاه . انى ذاهب الى المكتبة المجاورة .

وبعد أن يخرج لوجرو ثم باتوريل ، يقول باربارا ن لشريكه :
— لو رزقت ولدا فى يوم من الايام ، فانى أريده أن يكون مثل لوجرو .
— لن يكون مثل لوجرو .. فمن شابه أباه ماظلم !

وأخيرا يدخل جبرييل ، متأنق الهندام ، يلبس قفازا ثمينا ، وتطل زهرة من عروة سترته .

هنرى : انك تبدو سعيدا !
جبرييل : انى سعيد ، أكثر مما كنت آمل .

بارباران : يا لها من صفقة ، تلك التركية !

فيحتج جبرييل على لهجة صاحبه . ويدعوه الى أن يتكلم باحترام عن تلك السيدة الراقية التى تسكن حى « باسى » ، ويقف المصعد أمام بابها ، ويجرى الماء الساخن فى حمامها المرمرى ، وتتزين فى مخدعها بأدوات من العاج المذهب . انه معها فى نعيم دائم ليل نهار ، نعيم من جمالها ومن ذكائها ومن تفننها ومن أحدث وسائل الراحة التى توفرت حولها . لقد دعته الى أن يشاطرها تلك الحياة البديعة، اذ أنها وجدت فيه الرجل الذى كانت تبحث عنه منذ عشر سنين دون جدوى ! وقد صدقها الفتى الغرير فقرر أن يسكن معها . شىء واحد يعكر صفوه ، هو قلة ماله أزاء كثرة المصروفات وتنوعها ، بين أجور الخدم والحشم ، وتكاليف مطاعم الدرجة الاولى ، وتعدد الهدايا النسائية التى ينبغى عليه تقديمها ..

ويسأل جبرييل زميليه أن يعيراه خمسة آلاف فرنك حتى أول الشهر ، حين يرسل اليه أبوه مرتبه ، ويرهن مقابل هذا المبلغ ساعة جده الذهبية التى تقدر قيمتها بعشرين ألف فرنك . ولكن زميليه لا يملكان فى تلك اللحظة سوى ألفى فرنك. **وكيف عساه أن يواجه بألفى فرنك فقط مشروع تغيير سيارة عشيقته ؟ ها هو ذا يخرج من جيبه خاتما ثمينا :**

ـ أتريان ؟ .. ثلاثة قراريط ونصف ..

ـ من أين لك هذا ؟

ـ كلفتنى هى بأن أبيعه . هل تستطيع أن تبيعه يا هنرى ؟

ـ أستطيع أن أحمله الى « مازاران » ، فانه يتاجر فى كل شىء .

ـ أتريد أن نذهب اليه معا ، فى الساعة السادسة ؟

ـ ألا يوجد وراء هذا الخاتم ما قد يورطنا فى شىء ؟

ـ صه ! من يد سيدة مثلها ؟ !

ويتفقان على أن يقصدا ذلك التاجر اذا كان المساء .

وهنا تدخل « الاميرة » دخولا مسرحيا . جبرييل يقبل يدها ، ويحاكيه زميلاه . وتتبسط هى فتسأل الشريكين عن أحوالهما . وتتذكر أن هنرى حدثها يوما عن الشمبانيا. هل له أن يبيعها صندوقين ، أى أربعا وعشرين زجاجة ؟ لا أهمية للسعر .. ويحسب بارباران ثمن هذه الكمية ، ويهمس به فى أذن جبرييل « ١٤٨٠٠ فرنك ! » . وتسأل الاميرة : هل يتاجران فى أنواع أخرى من المشروبات الفاخرة .. وتتطوع بأن تعرفهما بعملاء كثيرين من بين أصدقائها .

جبرييل : وما أكثر أصدقائك يا أنيتا !

الاميرة : لا تكن غيورا ، فانك أنت الفتى الذى اخترته .

وتقبله قبلة طويلة. ثم ترجوه أن ينزل صندوقى الشمبانيا الى السيارة ، وتشير الى بارباران العملاق كى يساعده .

وتخلو هى بهنرى . واذ تتأكد من ابتعاد الاولين ، تقترب منه وكأنها لا تتعمد ذلك . وتسلط عليه نظرات فاتنة ، قائلة له :

— يبدو أنك موفق فى صفقاتك . ان وجهك ينطق بالذكاء وقوة الارادة .

— أترين ذلك أيتها الاميرة ؟

— يكفينى دليلا ، هذا العلاج الذى تخيلته لشفاء صديقك.

— انى أعرف الحياة .. بعض المعرفة .

— خيرا من جبرييل ، الذى يعوزه العزم والجسارة .. هل تعرف أن تقود سيارة ؟

— قليلا .

— أى أنك تستطيع اخراج سيارة من « الجراج » ؟

— انى طوع أمرك أيتها الاميرة ، ويشرفنى أن أقدم لك أى خدمة .

— هل يمكنك أن تمر على صباح غد ؟

— نعم .

— فى الساعة الحادية عشرة . وسوف أشرح لك الموضوع.

ويعود جبرييل وباربaran لاهثين . لقد وصل أبو جبرييل فجأة لزيارته ، وها هو ذا يصعد درجات السلم وراءهما . ماذا عساهم أن يفعلوا ؟ يبادر باربaran الى اخفاء صناديق الشمبانيا . ويقول جبرييل :

ـ دعوه يتكلم . واذا ألقى سؤالا ، فانى أتولى الاجابة ، وما عليكم الا التأمين على ما أقول . وأما أنت يا حبيبتى فأجيبى دائما باللغة التركية ، تيسيرا للامور .

ويدخل الصيدلى « لامى » . لقد حضر ليتفقد ولده على اثر « خطاب الغياب » الذى تسلمه !

ـ ألا تذهب الى معهدك ؟

ـ بلى .

ويرد الجميع : « بلى ! بلى ! » . **ويتهرب جبرييل من استجواب أبيه ، بأن يقدم اليه الاميرة أنيتا بنت الخليفة التركى . وتحييه هذه الاميرة برطانة مرتجلة يفهمونه أنها اللغة التركية . وهكذا يدور مشهد فكاهى يستوحى فيه المؤلف مسرحية موليير الشهيرة « المثرى النبيل » . ويصدق الاب ما يرويه ولده :**

ـ لقد تعرفنا بالاميرة أنيتا فى احدى محاضرات السوربون منذ شهرين . وتعطفت علينا فقامت بتعليمنا اللغة التركية ، بمعدل ثلاثة دروس كل أسبوع . وأنت أدرى بفائدة هذه اللغة لى فى معهد الدراسات البحرية .

فلا يسع الاب الا أن يشكر « الاميرة » على اهتمامها بمستقبل هؤلاء الطلبة الذين تغربوا فى العاصمة لتحصيل شهاداتهم العليا . ويغبطهم على عناية الاقدار بهم ، فقد هيأت لهم هذه الاميرة فى باريس ، كما هيأت لهم من قبل امرأة تشبهها فى (كوتانس) ، هى التى انتشلتهم من هوة الفساد التى كادوا يهلكون فى أغوارها . واعترافا بفضل الاميرة عليهم ، يدعوها

الاب الصيدلى لتناول الغداء معهم جميعا فى مطعم ذائع الصيت .

وفى لحظة خروجهم ، يصل لوجرو ، فيقبل على جبرييل ، ويستبقيه بضع دقائق ليفضى اليه بالامر الخطير :

ـ لقد رأيت الآنسة برافار !

فيسأله جبرييل ، فى عدم اكتراث :

ـ منذ مدة ؟

ـ منذ حوالى أسبوعين . وقد سبق أن مررت عليك .

ـ وماذا بعد ؟

ـ لقد حصلت على « الاجريجاسيون » وكان ترتيبها الاولى . وهى الآن تحضر الدكتوراه . تخيل !

ـ احمل اليها تهنئتى .

ـ انها كما هى ، فى بساطتها المعهودة ، رغم درجاتها العليا . أليس لديك ما تود أن تقوله لها ؟

ـ فى الوقت الحاضر ، لا .

ـ يا طالما حدثتنى هى عنك . فانها تحفظ جميع ذكريات المدرسة !

ـ ومع ذلك ، فهو ماض قديم !

ـ غير انى مازلت أفكر فى لوعتك يوم رحيلها .

ـ هكذا الحياة ! يتمنى المرء الموت ، ثم يسلو ، كما ترى .

ـ أما هى فلم تنس قط . وما زالت فى اهتمامها بنا تسأل عن تفاصيل شؤون كل منا . يالها من شخصية ممتازة ياجبرييل ! ساحرة ، باهرة ، تبعث النور والنقاء فى جميع ماتلمسه ..

ـ ها أنت ذا تعجب بها .

ـ قلت لها أمس ، وكان المطر ينهمر : « ان الشمس مشرقة دائما لمن كان فى صحبتك » . وتلك هى الحقيقة .

ـ أرجو أن نتحدث فى هذا الموضوع مرة أخرى . فان

صديقتى فى انتظارى .

ـ مع أبيك ؟

ـ سوف أقص عليك القصة يوما . هيا !

ـ ألست مشتاقا للقائها ؟

ـ سأفكر فى ذلك فيما بعد . هيا بنا !

ـ لقد أقلقنى عذابك وتشبثك بذكراها .

ـ كنت أظنها قد تزوجت .

ـ لا . ربما توفى خطيبها ، أو انفصمت علاقتهما لسبب آخر . لقد تجنبت أن أسألها .

ـ وهل تقابلها كثيرا .

ـ فى المكتبة ، أحيانا ، فنتحدث فيما يتصل بدراساتنا من كتب . وأمس تعشينا معا .. كما تعشيت أنت معها فى كازينو جرانفيل ، هل تتذكر ؟

عبثا يحرك لوجرو ذكريات جميلة تغلغلت فى قلب صاحبه وانطوت . واذ يصرح جبريل بأنه قد نسى ذلك الماضى ، وان مغامرته الجديدة تستغرقه ، وانه سعيد ، يستأذنه لوجرو فى أن يحل محله بجوار « الآنسة برافار » .. ويعود بارباران ليهيب بهما أن الجميع ينتظرونهما الذهاب الى المطعم . وتهبط الستارة أثناء خروجهم .

- ٣ -

• **وانقضى** أسبوع آخر ، تغير خلاله جو المسرحية من المرح واللهو والعبث ، الى الخوف والالم والكوارث تترى ! ترتفع الستارة عن نفس الغرفة ، وقد أستلقى بارباران ، معصوب الرأس ، على السرير ، يتقلب ويئن ، ويقيس درجة حرارته ، ويصيخ السمع ، ويرتجف اذ ينطلق فى الخارج بوق سيارة . انه متوتر الاعصاب ، ينهشه القلق . ويطرق الباب طارق ، فيثب من فراشه ويحاول أن يختبىء . واذا

بالقادم لوجرو . فيرتمى بارباران بين ذراعيه ، ويلوذ به مما يعانى . ولا يكاد لوجرو يفهم أى مصاب هذا الذى حاق بصاحبه .

ـ هل استشرت الطبيب ؟

ـ الطبيب لم يستطع أن يعالجنى .

ـ وأين هنرى ؟

ـ فى قسم البوليس .

ويتخفف بارباران من ألمه كلما استرسل فى الاعتراف بذنوبه لصديقه النبيل . انه اعتراف متقطع ، يستطرد فيه الفتى الغليظ من موضوع الى موضوع ، ويصب فيه سخطه على المجتمع الفاسد الذى أغراه بالكسب الحرام ، ويردد أصداء شعوره بالحسرة والندم . لقد كشف أبوه أمره ، فى الوقت الذى اختفت فيه خليلته حاملة معها آخر مابقى من نقوده . ويحاول لوجرو أن يواسيه من ناحية ، وأن ينصرف من ناحية أخرى كى يذهب للاستماع الى محاضرة تبدأ فى الساعة الحادية عشرة ـ أى بعد حوالى نصف ساعة ـ مع « الآنسة برافار » التى تنتظره فى المقهى المقابل . غير أن هنرى يدخل ..

يدخل صامتا ، مكفهر الوجه ، ويجلس وحده فى ركن ، **ويخرج من جيبه مسدسا .. انه يريد أن ينتحر بعد أن ضاقت فى وجهه الحياة ! ولكن لوجرو ينتزع منه المسدس ويثنيه عن عزمه الرهيب ، ويعيده الى رشده** . ان البوليس يتهمه بسرقة تلك السيارة التى ماكاد يخرجها من الجراج « للاميرة » حتى صدم بها « كشكا » على رصيف ميدان « الاتوال » ، فتحرر له محضر وخيم العواقب ، لا لانه لايحمل رخصة للقيادة فحسب ، بل لانه يجهل من يكون صاحب السيارة التى ارتكب بها الحادث !

وتكتمل المأساة بحضور جبرييل ، بادى الالم ، شديد الحسرة .

بارباران : ان المصائب كالوباء ! ماوراءك ؟

جبرييل : غدا تعرف ..

ويحيى لوجرو تحية آلية . ثم ينكب على الكتابة . ويقتدى به هنرى، ثم باربارن، وان كان لايجد ماذا عساه أن يكتب..

لوجرو : ماخطبك يا جبرييل ؟

جبرييل : انك أفضل من هذا كله . واليك سوف أعهد برسالتى الاخيرة . اقرأها فيما بعد !

ويحتفظ بغموضه وصمته .

ويدخل باتوريل ، فيروعه هذا السكون الشامل ، ومنظر زملائه الثلاثة وقد انهمكوا فى الكتابة . وانه لمنظر يذكرهم بما كانوا عليه فى فصول المدرسة الثانوية ببلدتهم ، وفى حصص الآنسة برافار ، حيث عملوا وأملوا وأحبوا الحياة .. ما أكبر الفرق بين أمسهم الباسم ويومهم الفاجع !

بهذا يحدثهم « لوجرو » ليعيد الى نفوسهم المضعضعة الايمان بالخير والثقة بالحياة . ويأخذه التأثر ، فيرجوهم أن يظلوا فى مكانهم حتى يرجع اليهم . ويمضى . ويتبادل الرفاق كلمات قليلة .

ـ ماذا تكتب لابيك ياجبرييل ؟

ـ « انى راحل على مركب شراعى. ولا أعلم الى أين سيفضى بى . ولكنك تفهم لماذا اخترت البحر ليكون آخر رحلة لى فى هذه الدنيا . ففى البحر لن تراودنى شهوة ، ولن يخلبنى وهم ، ولن يمكر بى خبث الناس . البحر قفر ليس به خونة ، ولا كذب ، ولا دهاء ، ولا بغايا .. أما « أنيتا » فهى محتالة يبحث عنها البوليس ، لوثت حياتها بعشرة رجال وأوهمتنى أننى الوحيد ! »

ونعلم أن الفتى الغرير عائد هو أيضا من قسم البوليس ،

حيث استجوبوه عن الخاتم الذى حاول بيعه ، واتهموه بأنه شريك لتلك المحتالة التى اختفت فجأة !

ويطرق الباب ، فيسيطر الخوف عليهم ، ماعدا باتوريل ، الذى يتطوع دونهم بفتح القفل . وتظهر « الآنسة برافار » ، كما عرفناها فى الرواية الاولى ، متأبطة حافظة كتبها ، رقيقة أنيقة فى غير تكلف ، ويتبعها « لوجرو » . فيغض الجميع من أبصارهم ، الا أنها تهيب بهم ، مستضحكة ، وكأنها الاستاذة تدخل فصلها المعهود :

ـ قيام !

فيرفعون رؤوسهم وينهضون . وتمر بينهم ، فتقف لحظة أمام كل منهم ، وتصافحه دون أن تقول له شيئا . لقد استعادوا بين يديها شعورهم القديم بالاحترام والهيبة . وبعد هذا الاستعراض التفتيشى ، تتجه « الآنسة برافار » لتجلس قبالة تلاميذها ، كما كانت تفعل فى المدرسة . فيقدم لها لوجرو منضدة وكرسيا . واذا بالمنظر ـ وقد استرد فيه كل شخص وضعه الماضى ـ يذكرنا بقاعة الدراسة التى شهدناها فى الرواية الاولى ، ويبعث لنا جوها الاليف .

ـ جلوس !

فيجلسون . وتدعو الاستاذة لوجرو ليتخذ مكانه بجوارها، فيلبى دعوتها . وأما جبرييل ، فقد ضم يديه الى صدره ، وتعلقت بها عيناه ، ولبث مسحورا بطلعتها . وعقد الاضطراب ألسنة الجميع ، وشل حركتهم ، فلم يرحبوا بها الترحيب الذى كانت تتوقعه !

ـ يبدو لى أنكم غير مشتاقين الى رؤيتى من جديد .. **ولكنى اعتدت مسامحة الحياة على ماتقدمه لى من صغائر النكران . وانى لاقول لنفسى ((انهم فى سن العشرين)) ، أى فى هذه السن التى يضع فيها المرء مستقبله نصب عينيه ويبيع ماضيه بثمن بخس . وذلك شىء طبيعى .** غير أن نظراتنا

تختلف ، وليس المقام على كل حال مقام الحديث فى الاخلاق . اطمئنوا ، لن ألقى عليكم درسا أخلاقيا .. وانى لواثقة من أنكم لستم فى حاجة الى مثل ذلك الدرس . هل أخطأت التقدير ؟

عبثا تحاول أن تدفعهم الى الكلام ، ولا سيما جبرييل الذى يظل جامدا ، شاخصا اليها دون انقطاع . فتجاذبهم هى أطراف الحديث ، تحييهم ، وتثنى على زميلهم « لوجرو » ، وتسأل كلا منهم عن دراسته وأحواله ، وتلاحظ على تلميذها العزيز « جبرييل لامى » ــ هذا الذى طلب يدها ذات يوم ــ انه غائب النفس مشغول البال ، تقصيه همومه فى واد غير واديها ، فتخاطبه لتشجعه وتعاتبه معا :

ــ أمسرور أنت بلقائى ؟

ــ نعم يا آنستى .

ــ هل تذكر فصلنا ؟

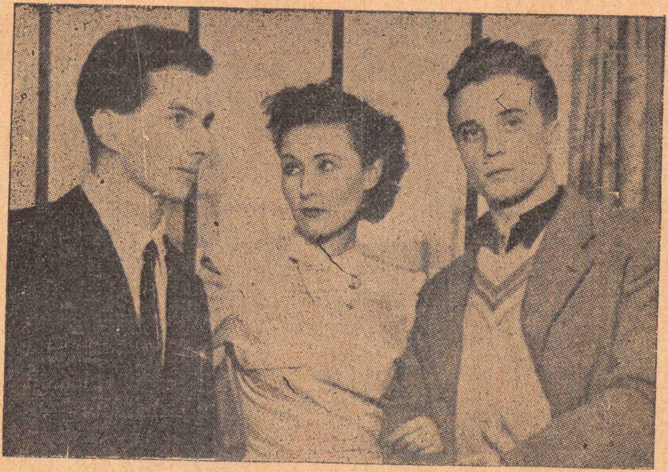
ــ لم أنس شيئا يا آنستى .

ــ كنت أظن أنك نسيت .

ــ فى الظاهر ، أحيانا .

ــ لقد كنت أفكر فيك ، حينما قمت أخيرا بجولتى فى السويد لالقاء بعض المحاضرات هناك . دعانى « أميرال » سويدى من أصدقاء والدى الى زيارة سفينته ، واذا بى افاجأ عند صعودى على ظهرها ، بصف من حرس الشرف يؤدون لى التحية ! ــ ولم يكن مايبرر ذلك سوى حفاوة القائد ــ ثم استعرضت أولئك الفتيان الضباط ، وقرأت فى نظراتهم الصافية آمالك وطموحك . وكنت أتخيلك ، كما أود أن أراك يوما ، وقد أضفى الزى البحرى عليك رجولة ، وطبع رضاك بأداء الواجب ملامح وجهك بطابع النبل الحقيقى . لعلك لم تغير رأيك .. ؟

ــ رغبتى لم تتغير .



الآنسة ((برافار)) ، بين ((لوجرو)) و ((جابرييل لامى)) (كما أدى أدوارهم على المسرح الفرنسى ثلاثة من نجوم فرقة ((الكوميدى فرانسيز)) بباريس)

ـ لا تكن يوما خائنا لاحلامك . فأحلامك وحدها هى التى تخلص لك ولا تخونك .

ويكاد ينضب الحديث ، فيقول بارباران للأستاذة الفتاة فى سذاجته الطيبة :

ـ لقد رأيت كثيرا من بلاد العالم ! ؟

ـ زرت عددا لا بأس به من البلاد . وأينما حللت من الارض ، كنت أجد صورة فصلى الاول . كنت ألقاكم جميعا أمامى . كنت أعير شباب العالم وجوهكم ، وآمالكم ، وأحلامكم . وكنتم تحوطوننى موكبا جميلا فى كل مكان .

ويهز الاعجاب بارباران ، فيهمس فى أذن باتوريل :

ـ انها عظيمة !

وتسمعه ، فتجيبه فى تواضع :

ـ لا . واذا كنت أدافع عن جيلكم ـ الذى أحسبه جيـلى أيضا ـ فلانه جيل أنجب من الابطال الحقيقيين مافاق به الاجيال السابقة ، ولان هؤلاء الابطال قد كفروا عن سيئاتكم .. طبعا ، على شرط الا تكونوا قد فقدتم الذاكرة ..

انها توجه عبارتها الاخيرة الى جبرييل ، ثم تضيف :

ـ أنتم سادة المستقبل . هل تشعرون بذلك ؟

فيرفع جبرييل رأسه . وتسترسل أستاذته المحبوبة :

ـ هل من العار أن يؤدى المرء اليوم عملا صالحا ؟ وهـل من أسباب المجد أن يرتكب أفعالا منـكرة ؟ أو لا يثبت المرء ذكاءه الا بالامعان فى التفاهة ؟ أيصبح الفتى مشارا للسخـرية مالم يقلد أولئك الذين يتفننون فى تلويث الحياة واهدار القيم ليشتهروا بين الناس ؟ أجيبونى !

فيطأطىء الجميع رؤوسهم .

الآنسة برافار : لعلى أهذى ..

بارباران : كلا ! العفو !

الآنسة برافار : أعلم انى أكبركم سنا . **واذا لم يـكن اثبات الشباب الا بخيـانة مايحبه ، فانى لانضم راضيـة الى صف الشيوخ !**

وتقترب من جبرييل :

ـ لامى ! لقـد أوحيت لى فى المـاضى أن لى بعض التـأثير عليك . فهل كانت تلك أكذوبة ؟

وتأخذ يده فى يدها . فيهز الفتى رأسـه بالنفى . انه لا يقوى على الكلام .

ـ لقد حفظت فى نفسى ذكريات بعينها ، ذكريات جميلة . وأنت ، هل ضيعتها ؟

فيهز الفتى رأسه بالنفى أيضا .

— لقد كنت أفخر فيما مضى بطاعتك لى . هل أتمتع اليوم بهذا الحق ؟

فيهز الفتى رأسه بالايجاب .

— أخشى أن أولمك . ألست متألما ؟

— انى أكثر منك ألما .

ويشد على يديها مؤكدا اخلاصه .

— اذن فأرجو أن تعفو عنى .

— بل انى أنا الذى أسألك العفو

— هل أستطيع أن أعتمد عليك ، رغم ما أثقلت به



الآنسة « برافار » تتحدث الى تلميذها « بارباران » (فى أحد مشاهد الرواية كما أخرجت على مسارح باريس)

عليك من النصح واللوم ؟

— هل أستطيع أنا أن أعتمد عليك ؟

— شكرا . انى أجد فيك الآن « لامى » القديم .

وتسحب يدها فى رفق، لتصافح الآخرين مودعة . **وتخرج مع « اوجرو » ليتناولا الغداء معا . لقد بدا أثناء حديثها أن هذا الشاب الذكى الدمث الاخلاق قد احتل فى قلبها مكان**

جبرييل الشاغر . ولا يملك جبرييل نفسه اذ يرى صديقه هذا ينصرف مع تلك التى هام بها حبا . فيعترض طريقه فجأة ويخاطبه بلهجة صارمة ، وهو ينظر اليه من رأسه الى قدميه :

ـ قل لى يا لوجرو !
ـ ماذا يا جبرييل ؟
ـ بل الى اللقاء . هذا أفضل .
ـ أغاضب أنت ؟ فيم أسأت اليك ؟
ـ مع السلامة . انتهز الفرصة . والويل لى !

ويقفل الباب فى عنف . ويستند اليه بظهره ، ويظل جامدا ، متقلص الوجه ، ثم يهوى على السرير . ويتوارى باتوريل صامتا ، بعد أن يلقى الى بارباران نظرة ملؤها القلق . ويهمس بارباران فى أذن هنرى :

ـ مشاكل جديدة !
فيجيبه صاحبه ، بهدوء واحتقار :
ـ ومن أجل امرأة !
فينهض جبرييل ، ويصيح بهما :

ـ هيا ! أنتما أيضا ! مع السلامة ! انى أريد أن أمكث وحدى .

بارباران : أما زلت تحبها ياجبرييل ؟
جبرييل : ليس هذا من شأنك !

ويثور الفتى على صديقه ، وعلى النساء ، وعلى الدنيا بأسرها . ويطرد صاحبه طردا . ثم يعود فيرتمى على سريره . وبعد لحظات من السكون ، يجهش فجأة بالبكاء . وعلى بكائه تهبط الستارة .

- ٤ -

• **وتبدأ** حوادث الفصل الرابع بعد انقضاء يومين ، وكأن شيئا لم يتغير ، فالستارة ترتفع عن جبرييل فى غرفته ، متبرما ساخطا ، منهمكا فى حزم حقائبه . ويقرع بارباران مستأذنا فى الدخول لمدة خمس دقائق فقط ليطمئن على حال صديقه . ولكن جبرييل مازال غاضبا ، لايريد أن يجيبه ، واذا أجابه فبعبارات جافة تبين حنقه .

على ان بارباران منشرح الصدر ، فقد انفرجت أزمته اذ تسلم مبلغ خمسة عشر ألف فرنك فى رسالة تحمل امضاء « صديقين » ، لا شك انهما « لوجرو » الذى ينم عنه أسلوبه ، و « الآنسة برافار » . **فيثور جبرييل على هذا التعاون الوثيق الذى أصبح يؤلف بين زميله الناجح وحبيبته الاولى . أما كان هو أحق بأن يجتمع بها شمله ؟ وهل يغتصبها منه « لوجرو » ، هذا المنافق الذى يلبس مسوح الرهبان ؟**

ويروى بارباران أن هنرى عاد الى قسم البوليس ليستطلع ما تم فى اتهامه بسرقة السيارة ، فأخبره الضابط بأن « صديقين » من أصدقائه أتيا الى القسم ودافعا عنه دفاعا مجيدا أقنعه بأن يحفظ المحضر . ويشتد غيظ جبرييل حين يستنتج أن هذين « الصديقين » اللذين يفعلان الخير ولا ينفصلان هما لوجرو والآنسة برافار !

ولا يلبث لوجرو حتى يظهر على باب الغرفة ، ليطمئن بنفسه على ما آل اليه أمر صديقه جبرييل . الا أنه يجد فتى متجهما يتحداه ويستجوبه :

- هل تخرج مع برافار ؟
- أحيانا
- منذ مدة طويلة ؟
- منذ يوم لقيتها فى مكتبة « جيبير » المجاورة .
- هل تأكل معها ؟

ـ فى قليل من الاحيان ، لانى لا أريدها أن تدفع ، وهى تصر دائما على أن تدفع الحساب .

ـ وهل تزورها ؟

ـ أزورها ..

ـ اذن فأنت الذى تسعى اليها . لا تراوغ ! أأنت أم هى ؟

ـ أنا وهى . اننا لا ندقق ..

ـ أفتحبها ؟

ـ هذا سؤال يضايقنى ، ولكنى سأجيبك : **انها بالنسبة لى رائد أتبعه وأنا مغمض العينين . اذا غبت اشتقت اليها . ويغنينى محضرها ، فهو لازم لى . أحب أن أراها ، وأن أكلمها ، وأن الاحظها ، وأن أصغى اليها . وانى لافهمها ، بل وأقرأ أفكارها . وتلتقى خواطرنا ، ومشاعرنا ، وأذواقنا ، وآراؤنا . اننا نحب معا أشياء بعينها ، وننبذ معا أشياء بعينها ..**

ـ لقد سألتك : « هل أنت تحبها ؟ »

ـ ولقد أجبتك يا جبرييل .

ـ اجابة غير واضحة .. انى أريد أن أعرف الحقيقة كاملة : ما شعورها هى من نحوك ؟

ـ لقد وصفت لك الواقع ، ولو قلت لك أكثر من هـذا فسوف أستوحى الخيال .

ـ هل تبادلتما القبلات ؟ أجب !

ـ مرة ، ذات مساء ، بعد أن قرأت لها آخر قصائدى ..

ويحتد جبرييل ، فيسأل غريمه عن تفاصيل تلك القبلة ، وهل طبعتها على خديه أم على عنقه ، وهل كانت قبلة قصيرة أم طويلة ، ثم يهدأ قليلا عندما يتأكد من انها كانت قبلة تهنئة بريئة كتلك التى شهدها فى الفصل يوم احتفالهم بعيد ميلاد الاستاذة . ويعود فيلح فى سؤاله :

ـ واذا كانت تحبك حقا ، فماذا أنت فاعل ؟

ـ انى فقير يا جبرييل ، ولم أكمل دراستى بعد ، فليس من

حقى أن أواجه حياة ذات أعباء جديدة ..
ـ ولكنها تشغل وظيفة طيبة .
ـ ان رزق الزوج وحده هو الذى ينبغى الاعتماد عليه . هكذا أفهم الزواج .

ويقسم له أنه يعجب بها ولكنه لا يستطيع أن يطمع فى الاقتران بها فورا . فيشد جبرييل على يده ويشكره .

ويظهر فجأة أبو جبرييل ، وقد حضر الى باريس لشؤون تتصل بنقابة الصيادلة . ويسأل الرجل ابنه عن « الاميرة » ، لانه يود أن يحمل اليها هدية من العطور ، اعترافا بفضلها . وينتهز الفتى الفرصة السانحة فيحاول اقناع أبيه الطيب بأن يطلب له يد الآنسة برافار ، **فقد أصبح فى سن العشرين ، ولن تستقيم حياته دون أن يتزوجها . ولا يكاد الاب يفهم من أمر ابنه شيئا .. انه موقف مؤثر وفكاهى فى نفس الوقت .**
ويريد الولد أن يدفع والده الى زيارة الآنسة فهى تسكن فى شارع مجاور بالحى اللاتينى ، ولكن الاب يرفض ، خشية أن يتعرض لما تعرض له منذ عامين من الحرج ، حين خاطبها فى نفس الموضوع أمامنا . ويطرق الباب ، فيصيح الابن بالطارق :
ـ انتظر ! انني مشغول !

وعندما يفتح الباب ، يجد أنها «الآنسة برافار» ، قد أقبلت تبحث عن « لوجرو » .. فيلثم الفتى يدها ، ويحييها أبوه ، وبعد لحظات يغالب فيها الجميع ما يعتورهم من اضطراب ، يأمر السيد لامى ابنه بأن يتركه مع الآنسة . وقبل أن يخرج جبرييل لينتظر لدى جاره باتوريل نتيجة المفاوضة ، يقدم لها زهرة ..

ويدور بين الشيخ الطيب والفتاة الذكية حوار لا يخلو من التلعثم والفكاهة . يشرح لها الرجل تعلق ابنه بها وتأثيرها عليه ، وينتهى الى أن مستقبل الفتى وصحته وسعادته متوقفة على رضاها . ولا تخفى هى دهشتها ، بعد أن رأت من جبرييل

علائم انصرافه عنها الى امرأة سواها . ثم تتحدث عن لوجرو مبدية اعجابها بمواهبه . فيقارن السيد لامى بين ابنه وبين منافسه :

ــ لو كنت امرأة ، لاخترت جبرييل !

وتشير الاستاذة الفتاة الى أنها تكبر تلميذها العاشق ببضع سنوات ، فينفى الرجل هذا الاعتراض ذاكرا أن زوجته هو تكبره بخمس سنوات . وأخيرا يترك لها أن تحكم بنفسها فى الموضوع، معتذرا لها من تدخله فى شؤونها مرة أخرى. وينادى ولده فى لهجة غاضبة .

يعود جبرييل ، والجد على وجهه ، والقلق فى عينيه . وتدعوه الآنسة فى هدوء الى أن يجلس ، فيطلب من أبيه أن يتركه معها . ويظهر بارباران ، فيصطحب مسيو لامى ويصعد به الى سطح العمارة ليريه منظر تل (مونمارتر) .

وينظر جبرييل مليا الى تلك التى يحبها ، ثم يركع أمامها ويقبل يديها،كما كان يفعل الفرسان فىأدب العصور الوسطى. أما هى فتعينه فى رفق على النهوض . ويتبادلان نظرة طويلة ، ثم تسأله :

ــ أحقيقى هذا ؟

فيهز الفتى رأسه بالايجاب .

ــ الى هذا الحد ؟

فيهز الفتى رأسه بالايجاب .

ــ منذ سنتين تقريبا .. ؟

ــ منذ أول يوم .

ــ أرجو ألا يكون هذا كله تمثيلا .

ــ لا تستطيع أى لغة أن تترجم شعورى .

ــ ولكن المرء يغير أحيانا رأيه .

ــ أما حبه فلا يتغير .

ــ وتلك المرأة ؟

ـ لقد كانت اياك !

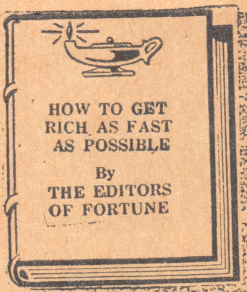
ويعاهدها أن يخلص لها الى آخر العمر .. ويقترب منها ، ويأخذ وجهها بين يديه ، ثم يعانقها ويقبلها ، رغم الدموع التى تملأ عينيه .

ويفتح الباب عليهما « لوجرو » ، فيعتذر ، ويذكر الآنسة برافار بموعدها معه لتناول الغداء . غير أن بارباران يهتف بالجميع أنهم اليوم ضيوف على السيد لامي . ويتأبط جبرييل ذراع خطيبته ، واذ يمر أمام « لوجرو » يهمس فى أذنه :

ـ أن الحياة جائرة فى بعض الاحيان . سامحنى !

فينحنى « لوجرو » تحية لهما . ويخرجون . وتهبط الستارة .

—*—


HOW TO GET
RICH AS FAST
AS POSSIBLE
By
THE EDITORS
OF FORTUNE


$
١٠٠٠٠٠٠

يسر « كتابى » أن يقدم اليوم للشباب الطامحين هذه المختارات من قصص النجاح العديدة التى يتضمنها هذا الكتاب النافع ، على أن يتبعها بقصص أخرى منه فى الأعداد القادمة ، كى يستمر هذا الباب حافزا مستمرا لهم !

سلك زنبركى يجلب الثروة والشهرة !

• **سبع** وثمانون قدما من السلك العريض .. سلك «الزنبركات» الفولاذى ، الذى ينطلق بشدة اذا لففته ثم خففت الضغط على اللفة . وهذه الاقدام السبع والثمانون ملفوفة بعضها حول بعض ، على شكل بكرة قطرها ثلاث بوصات ، وارتفاعها بوصتان .. هذه البكرة ـ ذات الحركة الحية الوثابة ـ هى التى ألهمت « ريتشارد جيمس » فكرة لعبة للأطفال ، جعلته من المخترعين ، وجلبت له ثروة ، وخلعت عليه شهرة فى ميدان صناعة اللعب ، حتى لقد بلغ مجموع مبيعاته ـ فى سنة ١٩٥٤ ـ نصف مليون من الدولارات !

لقد ولد «جيمس» ـ منذ أربع وثلاثين سنة ـ لوالد يمتلك « ورشة » للنجارة ، فى (فيلادلفيا) . وفى سنة ١٩٣٩ ، أتم دراسته وأصبح مهندسا ، فاشتغل فى مصانع « نيوبورت نيوز » للسفن ، بمرتب أسبوعى لم يتجاوز ٢٣ دولارا . وكان أول مافعله ـ بعد حصوله على المنصب ـ أن تزوج من احدى زميلاته فى الدراسة .

وعندما وضعت الحرب أوزارها ، ترك « جيمس » مصانع السفن ، واشتغل ببيع أجهزة تكييف الهواء . وانصرف ـ فى وقت فراغه ـ الى دراسة فكرة كانت قد طافت بذهنه ، فى أثناء الحرب ، **اذ شهد «زنبركا» ينطلق من يده بحركة غريبة . وراح يجرى تجاربه على السلك الزنبركى ، ثم تحول يريد أن يستغله فى لعبة مبتكرة يدفع بها الى السوق . ولكنه لم يجد**

تشجيعـا من المشتغلين بتجـارة اللعب ، فلم يفت هـذا فى عضده. بل عكف على انتاج نماذج من لعبته المبتكرة ، وأسلمها الى متجر صغير للعب ـ فى فيلادلفيا ـ ليبيعها لحسـابه .. وقبل أن يأوى « جيمس » الى فراشه ـ فى ذلك اليوم ـ كان المتجر قد باع أربع « دستات » .. أى ٤٨ قطعة !

واستأجر « جيمس » ـ فى الحال ـ « ورشـة » صغيرة ليصنع فيها لعبته .. ثم افتتح معرضا لانتاجه ، فلم ينقض تسعون دقيقة على افتتاح المعرض ، حتى كان قـد باع ٤٠٠ قطعة ، لقاء دولار واحد عن كل قطعـة . وفى غضـون ثلاثة أسابيع ، أرتفع الرقم الى ٢١٠٠٠ قطعة ، وتهافتت على طلب اللعبة ، متاجر لعب الاطفال ! .. وقبل أن ينقضى شهران على بيع أول قطعـة ، كان « جيمس » قـد باع أكثر من ٥٠٠٠٠ قطعة ، كان صافى ربحه فيها ١٥٠٠٠ دولار

وفى العام التالى ، حاولت احدى شركات اللعب أن تنتج لعبة مشابهة ، ولكنه رفع الامر الى القضاء ، دفاعا عن حقوق الابتكار ، فربح القضية ، واكتسب دعاية عن طريقها . **ولـكن الحظ لم يكن مواتيا على طول الخط . ففى سنة ١٩٤٧ ، أتى الحريق على ماقيمته ٤٠٠٠٠ دولار من اللعب . وفى أول العام التالى ، أصيب « جيمس » بمرض خطير ، وتعذر على مصنعه الحصول على الفولاذ . غير ان زوجته ـ التى كانت تدير العمل أثناء ملازمته المستشفى ـ أستطاعت أن تعقد اتفاقا معاحدى شركات الفولاذ الكبرى .** ولم ينته العـام ، حتى كانت أرباح الزوجين قد تجاوزت ١٨٠٠٠ دولار .. الارباح الصافية !

ووجـد « جيمس » أن الظروف كانت تضطره الى دفع رشوات بسيطة لمفتشى المصـالح ، الذين كانوا يشرفون على الورشة والمبانى ، ليسهلوا له مهـامه . ولـكن كرمه لم يزد المفتشين الا جشعا ، فلم يكن منـه الا أن ذهب الى النـائب العام ، وأفضى اليه بالامر كله..وسرعان ماكان اسمه وصورته

فى كل صحيفة .. وكانت دعاية بالمجان ! ولكنه اضطر الى أن ينقل نشاطه الى منطقة أخرى .

واتسع مصنع « جيمس » فشرع ينتج « زنبركات » لبعض الشركات الصناعية ، كما ابتكر أشكالا جديدة للعبته. وأصبح مصنعه ينتج ٧٠٠٠ قطعة فى اليوم الواحد !

الى النجاح والثروة .. فى قطار !

ان أحلام الصبا ، اذا اقترنت بقوة العزيمة فى نفس طموحة ، استطاعت أن تحول الفشل الى نجاح

• **بالرغم** من ان « آيك دفى » لم يتلق أية دراسة تتصل بالسكك الحديدية ، الا انه ظل يسعى جاهدا ، حتى اصبح ـ فى يوليو سنة ١٩٥١ ـ رئيسا لمجلس ادارة الشركة التى كانت تشرف على الخط الحديدى الممتد بين (أندرسن) و (ليبانون)، بولاية (أنديانا) الامريكية .. وكان الخط فاشلا ، لا يدر شيئا من الارباح ، بل ان خسائره بلغت ـ اذ ذاك ـ ١٠٠٠ دولار فى الاسبوع !

ولقد بدأ « دفى » حياته عاملا فى مصانع تعبئة اللحوم المحفوظة ، بأجر لايمكن تصور ضآلته ، ولكنه ـ عندما اعتزل العمل أخيرا ـ كان من كبار المشتغلين بهذه الصناعة . واذ ذاك ، حلا له ان يشغل وقته بالسكك الحديدية . **فقد كان فى صباه يقضى كل وقت فراغه محوما حول محطة السكة الحديدية فى بلدته ـ (لارجو) بمقاطعة أنديانا الامريكية ـ واستطاع أن يتعلم اشارات ((المورس)) وان يقوم ببعض أعمال المحطة !** ولكنه لم يكد يغادر المدرسة الثانوية ـ وهو فى السادسة عشرة ـ حتى انصرف عن المحطة وعن السكة الحديدية ؛ اذ بات عليه أن يكسب عيشه ، فعمل فى شركة لتعبئة اللحوم المحفوظة . وكان دؤوبا ، مجتهدا ، ذكيا . فلم يبلغ الاربعين

من عمره ، حتى كان ذا ثروة ، ورئيسا لمجلس ادارة شركة ـ تحمل اسمه ـ لتعبئة اللحوم المحفوظة ، فى الغرب الاوسط بأمريكا .

ومع كل هذا النجاح ، فقد ظل حلم الطفولة يراود « دفى »، فلم يكف عن التفكير فى السكك الحديدية .. وأخذ يقضى أوقات فراغه فى صحبة العاملين بها ، من أعضاء مجالس الادارات ، الى عمال « التحويلة » ! .. فلما نقل المقر الرئيسى لشركته الى مدينة (اندرسن) ـ فى سنة ١٩٤٤ ـ توثقت العلاقات بينه وبين شركة (سنترال انديانا) ، التى كانت تدير الخط الحديدى الفاشل ، فخطر له أن من الممكن لهذا الخط أن يدر ايرادا طيبا . وراح يسعى لشرائه ، ولكن مساعيه أخفقت

ثم منى «دفى» ـ فى سنة ١٩٤٩ ـ بتداعى شركته ، فاضطر الى أن يبيع كل أسهمه فيها ، والى أن يعتزل العمل فى تجارة اللحوم . ولكن الفراغ كان شديد الوطأة عليه ، فعاد يحاول شراء الخط الحديدى ، غير انه لم يظفر ببغيته ، لان الشركة التى كانت تشرف عليه ، كانت تستغل خسائره فى التستر على أرباحها الطائلة من خطوط أخرى ، تهربا من الضرائب الباهظة .

ولكنه لم ييأس ، بل ظل يحاول ، حتى عين رئيسا لمجلس ادارة هذا الخط الحديدى ، بمرتب اسمى ، فكان اول مافعله ، هو أن أدار الخط على أساس فردى . **فبدلا من أن كانت الشركة تسير ثلاثة قطارات اسبوعية ، عنى هو بالاتصال بكل شركة تشتغل بالتصدير وتهتم بنقل بضائعها الى الميناء ، ثم عدل جداول قطاراته وفقا لحاجة كل شركة ، حتى لقد كان يسير ـ فى بعض الاحيان ـ قطارا لايجر سوى عربة واحدة من عربات الشحن** . وبهذه المغامرة الجريئة ، عزز اعتماد الشركات على الخط الحديدى ، كما اجتذب شركات جريئة . وأخذ

الخط الفاشل يدر أرباحا ، فمضى « دفى » ينفقها على تحسين القطارات والمعدات ..

ولكن هذا الانفاق لم يزد الارباح الا ارتفاعا ، وبعد أن كانت خسائر الخط ـ عندما تسلم « دفى » ادارته فى سنة ١٩٥١ ـ حوالى ٣٧٠٠٠ دولار ، اذا الارباح الصافية تصل فى نهاية سنة ١٩٥٢ الى ٣٧٤٨٨ دولارا ، ثم وصلت فى سنة ١٩٥٣ الى حوالى ٧٠٠٠٠ . فرأت الشركة أن تكافىء « دفى » بمنحه علاوة ، ولكنه رفض هذه العلاوة ، وطلب أن يؤذن له ـ فى مقابلها ـ بأن يسير عربة خاصة به على الخط ، اصبح يدعو صبية الجيرة ليتنزهوا فيها ، وهو يقول : « هذا شىء لم يتح لى فى صباى .. ومن يدرى أن لن يكون بينهم قطب من أقطاب السكك الحديدية ! »

تشغيل العمال مصدر ثروة لزوجين

لن تعييك الوسيلة الى الكسب ، اذا عقدت النية صادقا ..
وهذا ما تلمسه فى قصة « دونا وبركمان »

• **كان** الاعتقاد السائد قديما ، هو أن الناس ينقسمون ـ من حيث العمل ـ الى فريقين : فريق جاد ، نشط ، دائب على العمل .. وفريق كسول ، متخاذل ، محب للخمول . ولكن تطور الحضارة الصناعية ، أدى الى ظهور فريق ثالث ، ينضم الى الاول بعض الوقت ، ويستلقى الى جوار الآخر فى فترات . أولئك هم العمال الذين لا يحبون الاستقرار ، فتجد الواحد منهم لا يمكث فى عمل ما وقتا طويلا .. ولعله يؤثر البطالة الى أن تنفد موارده ، فيضطر الى العمل أياما ، ليجمع ما يفى بمطالبه أياما أخرى !

وهذا الفريق أصبح مصدر ثروة لشخصين .. رجل وزوجته ! ومن الطريف ان لقبهما « ويركمان » .. اى « عامل ! »

ولقد طرأت الفكرة ـ أول ماطرأت ـ ببال الزوجة ، « دونا ويركمان » ، منذ ستة أعوام . فقد كانت لزوجها مؤسسة لتزويد الشركات ـ فى ٦ مدن أمريكية ـ بالعمال المتخصصين فى العمليات المتعلقة بالكهرباء ، والذين كانت تمس حاجة الشركات اليهم فى مواسم معينة . وفى غير تلك المواسم ، كانت المؤسسة تستبقى العمال لتؤجرهم بالساعة لاداء الاعمال الكهربائية . وكانت هذه المؤسسة تحظى بدخل سنوى بلغ فى سنة ١٩٥٢ ثلاثة ملايين وأربعمائة ألف دولار .

وهذا الدخل الضخم ، هو الذى أغرى « دونا ويركمان » على أن تنشىء مؤسسة أخرى ، لا تقتصر على عمال الكهرباء وحدهم ، وان لا تحتجز لنفسها عمالا بصفة دائمة ، وانما هى تجمع المتعطلين والذين لا يحبون الاستقرار ، لتحصل لهم على أعمال وقتية فى مصانع تعبئة اللحوم المحفوظة وغيرها من المصانع التى تحتاج ـ فى بعض الاحيان ـ الى عمال فوق عمالها ، لمواجهة الطوارىء .

على أن الخدمات التى تظفر بها المصانع من المؤسسة ، لا تقتصر على تيسير حصولها على العمال ، وانما تمتد الى تيسير كل مشكلات العمال . فان المؤسسة **تعفى الشركات من أن تكون بها أقسام خاصة لبحث الاجراءات التى يقتضيها استخدام العمال . من تأمين ، وضمان اجتماعى ، وطلب قروض ، واعداد قوائم الاجور ، وصرف هذه الاجور ..** أجل ، ان المؤسسة تقوم بكل هذه العمليات ، فلا تتكبد الشركة أكثر من أن تراجع كشف الحساب ، ثم تدفع لها قيمة الاتعاب ! .. وزيادة فى تيسير العملية ، قدرت المؤسسة أتعابها بنسبة ٤ فى المائة من كل كشف !

وفى الساعة السابعة من كل صباح ، توضع عند مدخل مقر المؤسسة ـ بشيكاغو ـ لوحة ، يكتب عليها بالطباشير

أسماء الشركات وأنواع العمال الذين تطلبهم . ويتقدم العمال لاختيار مايروق لهم من هذه الاعمال ، أو لعرض مالديهم من خدمات لم يعلن عليها . وتؤثر المؤسسة العمال الذين يترددون عليها بانتظام ، بأحسن الفرص والاعمال . وقد أصبح عدد العمال الذين تقدمهم للشركات يوميا ١٥٠ عاملا فى الاوقات العادية ، وضعفهم فى مواسم النشاط .

الإلياذة

ملحمة الحبّ والحرب!

بعد غياب ثلاثين قرنا، وافتك ملحمة "هوميروس" الخالدة فى تلك الترجمة "الكاملة" والطبعة العربية الأنيقة التى قرأت الجزءين الأولين منها منذ أسابيع، وتقرأ الجزء الثالث والأخير منها بعد أيام .. ثم تحفظها لأولادك ذخرا ثقافيا وتراثا إنسانيا يفخر باقتنائه كل بيت، فلا تهمل فى اقتناء الجزء الثالث منها فور صدوره، وإذا كان قد فاتك أحد الجزءين السّابقين فسارع إلى طلبهما، قبل نفادهما، من الإدارة (١٤ شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة)



يصدرها
حلمى مراد

مطبوعات كتابى
الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية